2

سلسلة كتب الدكتور جاسم سلطان

من الصحوة إلى اليقظة

الدكتور جاسم سلطان

- طبعة خاصة -

الكتاب:

من الصحوة إلى اليقظة

تأليف:

د. جاسم سلطان

الترقيم الدولي I.S.B.N:
132/27/8

المُتابعة والتنسيق:

يوسف شلار

الفاروق عمر عامر

إخراج فني: ريان زايد



www.jassimsultan.com

–طبعة خاصة–

من الصحوة
إلى اليقظة

د. جاسم سلطان

الفهـــــــرس

تقديم

بعد حمد الله والثناء عليه...

في هذه التقدمة أودُّ أن أتقدم بالشكر إلى أسرتي الكريمة أم محمد والأبناء؛ لأني أقتطع من وقتي معهم للكتابة، ولطالما أحاطوني بالودِّ والدفء الذي لا أستطيع أن أوفيه حقَّه، فشكري لهم موصولٌ، ودعائي لهم بأن يحفظهم الرحمن بحفظه، ويجزيهم عني خير الجزاء.

وثانيًا: أودُّ أن أشكر أولئك النفر الأوائل الذين حضروا معي كتابةَ الطبعة الأولى من هذا الكتاب، فرغم تباين الكتابين، فإنَّ لحظة ميلاد الكتاب الأول كانت هي الأعسر، فالإخوة: عادل وأحمد ومعهما الإخوة علي العمادي وعلي ضيف كانوا خير دعم في لحظة الميلاد.

ثالثًا: هذه الطبعة راجعها معي أخ كريم كان له الفضل في التصويب والتدقيق وهو الكردستاني ميدي بيداوي، وقد اقتطع من وقت دراسته للقيام بهذا العمل فله الشكر موصولًا.

رابعًا: ما زال الابن البار أحمد لطفي يمدنا بعونه ومساندته رغم البعد، فله ولأسرته وافر الدعاء وكثير الامتنان.

المقدمة

سؤال الأسئلة

لقد شغل الأمة سؤال كبير: لماذا تخلَّفنا وتقدم غيرنا؟ أشارت الأصابع إلى مختلف الاتجاهات؛ المؤسسات، السياسة، التعليم، الاستبداد، القابلية للاستعمار، وإنسان الانتظار، حسب مالك بن نبي، وبقي السؤال عالقًا حتى يومنا هذا، ومن هنا وُلِدَ مشروع النهضة الذي بين يديك عزيزي القارئ.

الزمن ونضج الأفكار

كتاب «من الصحوة إلى اليقظة» هو أول كتب السلسلة، لقراءة استمرت أكثر من ثلاثة عقود، تدور حول سؤال النهضة، وكلُّ ما سبقها من كتابات كان بحثاً عن ذلك السؤال المحوري، ورغم أن الكتاب صدر في عام 2006، فإن مادة الكتاب كانت قد تشكّلت قبلها بعقد ونيف. والآن بعد مرور ما يقرب من عقدين ونيف على هذا الكتاب، رأيت ضرورة تجديده، فالأفكار التي تناولها الكتابُ

الأول اختلفت ظروفها واختلف المخاطبون، وبرزت الحاجة إلى خطاب جديد؛ فالزمن يلعب دوره في نضج الأفكار.

الأيديولوجيا وآثارها العميقة

عندما ننظر إلى ذخيرتنا من الأفكار في فترة الصبا، ونرى حجم الأيديولوجيا التي كنا نحملها، والتي كانت تشغب على أي تفكير موضوعي، نعلم ما يعانيه الشباب الذين تم تحميلهم أيديولوجيات لم تُتَحْ لهم الفرصةُ لفحصها أو آلية لنقدها، وهي تُنقَشُ في أذهانهم في مرحلة المثالية المطلقة، والتي تتغلب فيها المشاعر على العقل، وحتى حين يعتقد الإنسان أنه انفك من الأيديولوجيا، فهو لا يضمن بقاياها. والكتاب السابق هو الأول في السلسلة، ولغته تعكس تلك المرحلة من العمر، فرغم أن قضاياه الكلية ما زالت الحاجة إليها قائمة، فإنَّ اللغة التي كُتِبَ بها تحمل بقايا من روح تلك المرحلة ومسلماتها.

حيرة المؤلف

لقد كان السؤال الذي واجهه المؤلف، هل يلزم تعديل لغة الكتاب أم إبقاؤه كما هو، أم إن المتطلبات العصرية لكتابة كتاب جديد تلوح لبيان موقفنا من مرحلة اليقظة بعد مرور هذه السنين؟ فترجحت فكرة الكتاب الجديد، بسبب الحاجة إلى خطاب حديث يأخذ في اعتباره اختلاف الزمن.

منطق الكتاب

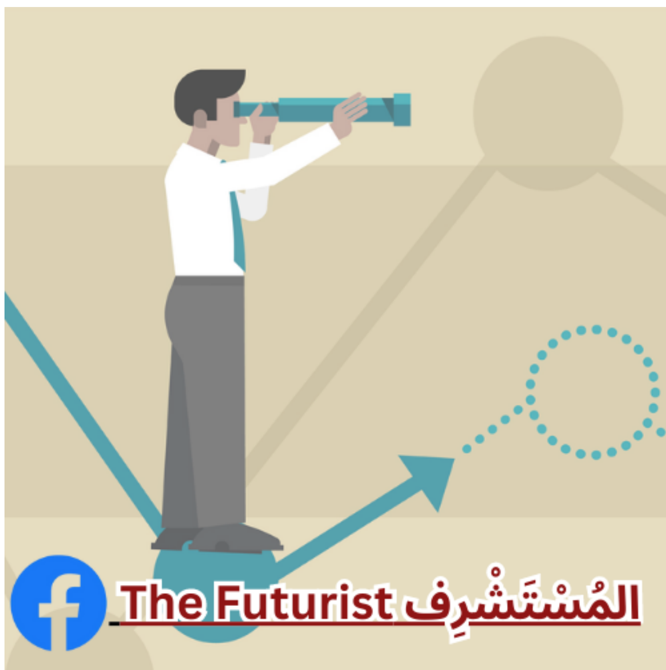
إن مشروع النهضة هو الأمل في غدٍ قادم، ولكن الطريق إلى النهضة يمر عبر مراحل عديدة تحمل في طياتها الكثير من التحديات العميقة؛ فأُولى هذه المراحل هي التي عرّفناها بمرحلة اليقظة، والتي تحتاج بدورها إلى مراجعات كبرى في عدة قضايا تُعدُّ جوهرية؛ فتحتاج في الخطوة الأولى إلى رفع الواقع كحاجة أساسية، ومع أن الاعتراف بالواقع ليس يسيرًا، لكن ثمن عدم مواجهته باهظ؛ لذلك فإن البحث عن أسباب الإخفاق العميقة هو جوهر البحث، مع أن تحريك الأمة من موقع التخلّف إلى طريق التقدم مرهون بتغير اتجاه التفكير من الماضي إلى المستقبل؛ فالأمم الغنية

تقع في وهم التقدم حينما تكون القدرة على شراء منتجات الحضارة دون امتلاك الروح المنتجة لها؛ ولذا فإن دراسة العمق الحضاري لأي أمة مرهون بدراسة تصوراتها الكبرى التي تصنع قراراتها، وكما هو بيّنٌ للعيان، فإنَّ الأمة تعاني اليوم من آفات جوهرية تعيق مسار وحركة النهضة؛ فهي تعاني من الانقسام والتشظي، ومن قصور في الوعي بمتغيرات العصر، كما تعاني من اليأس، وأيضاً من مشاكل أخرى كثيرة؛ ولذلك فهي تحتاج إلى مفاتيح الأمل، وتحتاج إلى تصور عن الإسلام الذي هو رحمة للعالمين، ينقلها لخطاب كوني غير منغلق على الذات، كما تحتاج إلى نقلة في التفكير في موضوع الدولة الذي شغل أبناء الصحوة، ولا زال يشغل عقولهم، وأخيرًا تحتاج إلى تصور جديد للقيادات، وإلى برنامج عمل للمستقبل.

بنية الكتاب:

المعنيون

الكتاب يستهدف بالدرجة الأولى الشباب، ومن بعدهم كل المهتمين بصناعة غدٍ أفضل لأمتهم والبشرية. وسيتناول قضايا تأسيسية في فكر النهضة، وبالترتيب ذاته الذي ورد في الفهرس، وبالترقيم ذاته، ولنبدأ بأول مطالبنا وهو تعريف مشروع النهضة.



join us: https://t.me/thefuturist2021

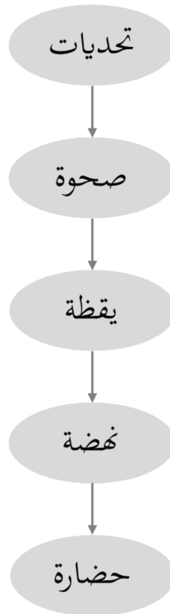
مشروع النهضة

أمل في غدٍ أفضل

مشروع النهضة

تعريفات:

القول الشائع هو "لا مشاحة في الاصطلاح"، ونحن سنستخدم بعض المصطلحات في طيات الحديث، والأفضل تعريفها، حتى إذا جاء ذكرها تبيّن مدلولها في سياقاتها؛ فمشروع النهضة بُنِيَ على شرح مسار تم تبسيطه باستخدام نموذج المراحل الخمس:



المراحل الخمس

نموذج:

النموذج أداة شرح وتبسيط، ليست وظيفته التطابق مع الواقع حرفيًّا، بل يهدف إلى تسهيل المعلومة ورؤية العلاقات في شكلها البسيط، والحكم عليه يكون بدرجة نفعه لا بدرجة مطابقته للواقع؛ إذ هو بطبيعته اختزال شديد للواقع.

التحديات:

في هذا السياق، فإن المقصود بالتحديات هو وجود أحداث تقود إلى صدمة نفسية، وتستفز في الإنسان روح المقاومة، والمقصود هنا التحدي الإيجابي، فهناك تحديات قد تكون أعلى من قدرات المجتمع أو حتى ضعف التحديات فهي أيضًا لا يستفز طاقة المجتمع.

الصحوة:

هي مرحلة إفاقة من غفلة شديدة، مع قليل من الرشد في الاستجابة (حماس – رشد). هي صحوة، ولكن مع بقايا خمار من غفلة؛ فهي أشبه بشخص نام نومًا عميقًا في غرفة مظلمة، فأيقظه منبه قوي، وهو لا يريد أن يفتح عينيه مفضلًا النوم، ولكن صوت المنبه يجعله يحرّك يديه بحثًا عن وسيلة لإسكاته، وربما وقع المنبه نتيجة هذه الحركة، فاضطر أن يغادر السرير لإيجاده ووقفه، وهو يبحث عنه وبسبب استمرار خمار النوم ربما اصطدم برجل مقعد أو دولاب وسبَّبَ الأذى لنفسه.

اليقظة:

هي حالة صحوة، ولكن مع شدة الانتباه والفطنة، فهي (حماس + شد) ينتبه فيها الفرد إلى تعقيدات الموقف ويتحرك مستبينًا الطريق.

النهضة:

هي أفكار حية تتنزل على بيئة ركود، تثيرها وتفعّلها وتدخلها في دورة حضارية جديدة؛ فبيئة الركود تتسم بسيادة الأفكار الميتة والمميتة، وبالتالي فنزول الأفكار الحية يثير كل طاقة الأفكار الميتة، ومَن يمثلها، فإن نجحت الأفكار الحية في استيطان البيئة، أحدثت فاعلية جديدة تبشر بدخول المجتمع ساحة التدافع الحضاري، والشراكة الكبرى مع البشرية.

الحضارة:

هي الانتقال من البسيط إلى المركب؛ أي الانتقال من حياة البداوة والترحال، إلى سكن المدن والاستقرار، وبالتالي فمن سكن المدن فقد تحضر، ولكن المستوى الحضاري للمدن متفاوت، فالحضارة درجات، ومقصودنا هنا بمرحلة الحضارة هي وجود عطاء متميِّز ونموذج صالح ليشكل نموذجًا فارقًا عن بقية الحضارات الأخرى الموازية.

تشخيص:

لقد قدم المفكرون خلال قرن ونيف العديد من التفسيرات لتشخيص أسباب الأزمة التي تعيق حركة الأمة للتقدم والنهوض؛

فعلى سبيل المثال، رأى خير الدين التونسي أنها أزمة مؤسسية إدارية فكتب (أحسن المسالك في تدبير الممالك). غير أن الأفغاني رأى أنها أزمة سياسية، فصبَّ جهوده في الإصلاح السياسي، أما محمد عبده فأشار إلى أن الإشكال في التعليم؛ فصب جهده لتغييره. وبينما اعتقد الكواكبي أن المشكلة تَكْمُنُ في الاستبداد السياسي، وجدها رشيد رضا في الانقطاع عن التراث، فأعاد تدوير كتبه، أي كتب التراث، وفيما يتعلق بالبنا، فقد رأى السبب في غياب التنظيم لاستعادة الخلافة، فبنى تنظيمه، بينما ادعى النبهاني أن الأزمة في ثقافة الخلافة، فبنى كتبه حول تلك القضية، أما سيد قطب فقد كان أيضًا أحد الذين قدموا تفسيرًا لسبب الأزمة، وقال: إنها البدايات الخاطئة. فقرر العودة لنقطة الصفر لخلق الطليعة التي حلم بها، في حين ذكر مالك بن نبي أنها أزمة أفكار قاتلة أدت إلى قابلية الاستعمار، يمكن هنا القول: إن كل ذلك يمكن أن يكون صحيحاً، ولكن في اعتقادنا، أن هناك ما هو أعمق من ذلك مجتمعًا، وهو غلبة المنهج الاستنباطي، وضمور المنهج الاستقرائي، السبب الذي قاد إلى مشكلة الانفصال عن حركة الواقع، والاستغناء باستدعاء النص والاستنتاج منه؛ فبذلك فقدت الأمة أرجلها التي تسير بها على الأرض، وأصبحت بلا بوصلة واقعية تمدها بالتغذية الراجعة وتجدد اجتهاداتها.

عنوان المشروع:

أما عنوان المشروع وهو مسمى "النهضة"، فهو يعرض توقًا للنهوض، والنهضة طريق وليست نهايات، وإطلاق فكر النهضة في

شقه الفكري هو مساهمة مع كثير من الجهود المهمة التي تتوالى في الدخول على الساحة منذ فجر الشعور بأزمة التخلف، ولكن فيما يتعلق بشق الفعل، أي تحويل الفكر إلى عمل في الواقع، فمشروع النهضة لا ينطلق على مستوى الدول، إلا بأن تتولاه، وتتبناه قيادات جادة تسير به من منطقة الفكر إلى منطقة التجلي، والفعل الظاهر، وهذا بدوره سوف يقصّر الخط الزمني للنهوض، وإلا فإن الطريق البديل الذي يَكْمُنُ في تراكم الجهود الفردية سيُطِيلُ من عمر المسافة الزمنية للوصول إلى مرحلة النهضة.

جوهر مشكلة النهضة:

هو في إقناع أمة مسكونة بأفكار الماضي أن تعانق المستقبل، وأن تغيِّر نمطَ تفكيرها، وتُعِيد ترتيب معارفها، وأن تتحرك في الحياة على بصيرة.

التحديات الظاهرة:

التخلف والاستعمار والتجزئة هي أمور ظاهرة على السطح، ويسهل رؤيتها وبالتالي يتجه الجميع إلى الحديث عنها.

التحدي العميق

أما مناهج التفكير التي قادت إلى أزمة النهضة، فهي الداء العميق الذي يتم الهروب من استحقاقاته عبر آليات الدفاع المختلفة كالإنكار، ومهاجمة من يُبصِرُ به. وبدون نقل مركز الثقل من الاستنباط إلى الاستقراء لا سبيل من الخروج من المأزق الراهن.

العقبات الجوهرية:

- الوعي الزائف

فالوعي بجوهر النهضة عليل، فالبعض يحسب أن النهضة في المكاثرة بمقتنيات الحداثة، فهم يرون المظهر، ولا يعنيهم البنية التي تقف خلف هذا المظهر، وعلى مستوى العمل للنهضة، أصبح مجرد الانتماء إلى تنظيم ما هو عمل للنهضة دون السؤال عن الأفكار الحاكمة التي يتم صرف الأوقات فيها، فكم أهدرت من طاقات ظنت أنها تبذل، وتخدم، لتكتشف عند الاختبارات الكبرى حجم الفراغ والوهم الذي كانت تعيشه.

- تدوير ما أثبت الواقع فشله

سألني شاب في محاضرة قريبة أواخر 2018 - وبحماس منقطع النظير - عن الجهاد والقتال كطريق لحل مشكلة التخلُّفِ وكسر شوكة الخصوم، فقلت له: لو كلمتني في فترة الثمانينيات مع حرب الأفغان أو من ست أو سبع سنوات لعذرتك، وإن خالفتك، ولكني اليوم لا أجد عذرًا، فما أثبت الواقع عقمه، وقصوره، ليس من العقل إعادة تدويره، وكأنه مسار لم يُجرَّب، ولم يُختبَر، ولكننا مغرمون بإعادة التدوير، ليس لمرة ولا لمرات، ولكن بشكل دوري لا تفعله أي أمة عاقلة.

- إعادة تكرار الإجابات ذاتها دون اعتبار لا لتعقيد السؤال أو لدرجة وعي السامع

أرسل إليّ أحد الأحبة رسالة عبر برنامج التواصل الاجتماعي، يطالبني فيها بترويج رد صاغه معترضًا على أحد المفكرين، وهو رد تقليدي مكرر، سمعه العامة، ناهيك عن المشتغلين بالحقل الفكري، فرددت عليه بأن ما تفضلت به قد تجاوزه الرجل الذي تريد الرد عليه (للتوضيح)، وهو يعلم الأرضية التي تنطلق منها، والمادة التي تشير إليها، فإن أردت محاورته، فانظر إلى منهجه، فهناك نقطة الافتراق، فالرجل مر بالحوارات ذاتها قبلها مرات ومرات، ولكن صاحبي أصر أن هذا لم يسمع بهذه المباحث، ولم يشم رائحتها، فتركته عند ذاك المنعطف مقدرًا حماسته، وفي الوقت ذاته، كنت أعلم من تجربة الحياة أن ذلك نمط شائع عندنا، فصاحب التخصص باستمرار يعتقد أنَّ مَن يقابله لم يقرأ في المجال ذاته، وبالتالي يُعيد المقولات والردود ذاتها دون أن يضيف شيئًا نافعًا لتطوير الحوارات.

- الخوف من الجديد

إن العصور الحديثة بُنيَت على فكرة الاحتفاء بالجديد من الأفكار والمبتكرات لسبب موضوعي، وهو أن العالم بقي جامدًا بسبب إيمانه بمقولات الكنيسة وأرسطو لمدة ألف عام، وثبت بعدها خطأ الاثنين، فأرسطو أخطأ في نظريته عن دوران الشمس حول الأرض، وأن الأرض مركز الكون، وكانت الكنيسة قد تبنت أقواله، ولكن العلم التجريبي أثبت خطأها، وبالتالي فقد غدا العلم التجريبي سيد الموقف، ووظيفته اكتشاف الجديد باستمرار، ومعه وُلِدت فكرة الحرية كضمان لطرح الجديد دون خوف. وبذلك لم يعد القديم مغريًا بقدر ما يفيد في

اكتشاف الجديد، ولكن الجديد في بيئاتنا مُحارَبُ وكأن الزمن توقف والحوادث تتكرر دون جديد، أو كأن القديم يمتلك قدرة خارقة على علاج كل جديد.

- شيوع الروح الماضوية

إن التعلّق بالماضي على شكل حنين، له مبرره النفسي؛ لأنه استرجاع لشريط مضى ليس فيه مفاجآت أو قلق، فحين تتذكر طفولتك مثلًا فأنت لا تتوقع أن تتغيّر الأحداث؛ لأنها هي هي ستعود دون مفاجآت إلى شريط عقلك، أما الحاضر والمستقبل، فهما يحملان معهما ما هو غير متوقع، ويولدان من القلق الكثير، والنفس تحب أمان الماضي على قلق الحاضر والمستقبل، ولكن التعلق بالماضي يصبح حالة مرضية حين يصبح بديلًا عن الحاضر، وإنجازاته، ومكانًا لتوقع الإجابات للحاضر والمستقبل.

- نفسية الضحية

أمم الأرض تتمتع بحس المسؤولية، وأمتنا تستمتع بحس الضحية، والفارق كبير بين مَن يرى نفسه موضع المسؤولية، فينطلق لعلاج أخطائه، وبين مَن يعيش دور الضحية، وينتظر سكين الجزار، فمن السهل إلقاء اللوم على الناس، وعلى الخارج، ونسيان لوم الذات، وإطلاق ممكناتها حتى تسدد، وتقارب في صراع الحياة.

العقبات العادية:

• الواقع المتردي

نشتكي من الواقع المتردي باستمرار، والبعض يجعله سببًا لعدم الفاعلية والنشاط، ويجعل شرط الفعل هو تغيّر الواقع، ولكن الحقيقة المؤكدة أنه لو كان الواقع صالحًا لما كانت هناك حاجة لكل هذا الحديث، فهذه الأوضاع هي التي دعت إلى فكرة الدعوة والعمل، وطريق النهضة يبدأ بكفاح مرير في ظروف سيئة لإنتاج شروط إطلاقها، فقائمة الصعاب المتعلقة بقيود الواقع متوقعة، ولذلك عددنا أنها عادية.

• الاستعمار ومخططاته

الاستعمار ومؤامراته هو حدث كوني مألوف من هيمنة القوي على الضعيف؛ فوجود أي ضعف في أي منطقة من العالم، يجعلها مسرحًا للتدخلات، وهو عقبة ضخمة، ولذلك وضعناه في خانة "عادي".

• الحكومات وسوء الفهم

إن نظرة الحكومات لأي نشاط فكري بقلق هو طبيعة في مناطق الركود، وبالتالي فعداء أغلبها للنشاطات والناشطين ليس أمرًا غريبًا؛ ولذلك وضعناها في خانة "عادي".

• التنظيمات والخوف على الأفراد.

والتنظيمات المختلفة تنظر إلى أي طرح مختلف عنها بقلق وريبة،

وهذا أمر طبيعي، فعملية المحافظة على الأفراد من عوامل الجذب الخارجية، تجعلها باستمرار في صراع مع أي فكرة مختلفة.

- الدعاية السوداء

وهي حرب إشاعات منظمة تستخدم لوقف حركة الأفكار، وجعلها تنكفئ على ذاتها، وهذه عادية أيضًا.

المشروع وشعاراته

إن اختصار بعض الأمور في شعارات، تبسط روح المشروع واتجاهه، مهم لكل مشروع، ومنها مشروع النهضة:

1- يسأل بعض الناس ما هي نظرة المشروع، واحتياجات إنجازه، فنقول: هو ”تمرة وفسيلة وثوب“. فكل إنسان يقدم ما يستطيعه، ولا يبخس الأشياء الصغيرة حقها. فشق ”التمرة“ في حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – مهم في مسيرة العطاء، وغرس ”الفسيلة“ ولو قامت القيامة، يحدثنا عن الأمل المفتوح، ولو بدا أن الظلام حالك، والأفق مسدود، أما ”الثوب“ في خبر رفع الحجر الأسود، وتعاون الأيادي على رفعه، يهدينا إلى أن المشاريع تحتاج إلى تضافر الجهود وإننا نحمل طرفًا من مهمة، وأن هناك غيرنا يحمل أطرافًا أخرى، قد تظهر لنا، وقد تخفى علينا.

2- ”كن مشروعًا أو كَوِّن مشروعًا أو ادعم مشروعًا“، شعار

يجيب على سؤال ”ماذا أفعل إن مررت ببرنامج المشروع؟“. ”كن مشروعًا“ تقول لنا: إن الفرد إذا تميّز بخُلقِه، وعلمه، وعمله في مجال تخصصه، فهو يشكّل لبنة في مشروع النهضة، والشخص الذي ”يُكوِّن مشروعًا“، وعنده القدرة على جمع آخرين للقيام بعمل نافع للأمة، هو أيضًا في غاية الأهمية للأمة. وأما مَن لم يستطع أن يكون مشروعًا، أو يكوِّن مشروعًا، فبإمكانه أن يجد مشروعًا قائمًا فيدعمه بماله، أو جهده، أو شبكة اتصالاته، أو مهاراته، فحركة النهضة هي انبعاث حيوي تجعل كل فرد فيها طاقة منتجة بشكل من الأشكال.

دائرة احتياجات المشروع الأوسع:

مشروع النهضة عادة ما يمر بمراحل:

تبدأ مرحلة المشروع الأولى بطور جنيني على شكل دعوة ونضال وتبليغ، ثم تأتي مرحلة التقاء نخبة البدء بنخبة التغيير، ومن بيدهم مقاليد الأمور، بعد ذلك تبدأ مرحلة إيجاد صياغة لعقد وطني مقبول، تليها مرحلة التخطيط المركزي ووضع النظم والمؤسسات، وكل هذه المراحل صعبة، ولكن أكثرها صعوبة العبور لتوافق بين النخب حول مشروع الدولة.

دائرة احتياجات مرحلة اليقظة:

أما مرحلة اليقظة فهي بامتياز مرحلة تحوّل في عالم الأفكار،

والانتقال من نمط التفكير، والثقافة السائدة إلى نمط تفكير جديد، وثقافة جديدة، فهي المقدمة الأساس لبناء عالم جديد، بعقل جديد ومعالجات جديدة.

أين وصل مشروع اليقظة اليوم؟:

بعد مرور ما يزيد عن عقد من الزمان من إطلاق مشروع اليقظة تحت عنوان "النهضة"، نحتاج أن نرى أين وصل المشروع بذاته؟ وأين وصل بغيره؟ فالمشروع بذاته كان يستهدف الوصول إلى عشرين ألفًا من الشباب، ويصدر اثنين وعشرين كتابًا معرفيًّا، ويوفر مادة تدريبية على الإنترنت، متاحة للجميع. ولكن وبفضل الله – عز وجل – بلغ عدد المهتمين 15 مليونًا أو يزيدون، كما أنهينا 18 كتاباً وصلت إلى الجمهور، وما زال الأمر يتسع. أيضاً، تم توفير المادة التدريبية، وفوقها البرامج الشارحة للمهتمين على الإنترنت، وساعدت الظروف المحيطة كثيرًا في انتشار الأفكار، فأغلب الأفكار التي تمسَّكَ بها الناس كحلول خلال القرن الماضي انهارت بعد اختبارها على أرض الواقع، ووُلِدَ جيلٌ أكثر تحررًا وبحثًا عن الجديد، والأمم حين تصل إلى مثل هذه المراحل فهي تستعد لميلاد جديد.

ماذا عن التنظيم؟

كثيرًا ما يتردد السؤال حول ”ما رأيكم في التنظيم؟“، وإجابتي لا تتغير أن التنظيم هو أعظم مكتشفات الإنسان، فبالتنظيم استطاع الإنسان أن يحقق أكبر إنجازاته، ولكن إجابة هذا السؤال تكمن في الإجابة على مجموعة من الأسئلة، وهي كالتالي: ما الغرض من التنظيم؟ ما العمل الذي سيمارسه؟ ما الأفكار التي يحملها؟ ونوعية الممارسات التي يتبناها؟ تحت أي ظروف يعمل؟ ما هو المردود والخسارة؟ فالحكم على الشيء فرع من تصوره.

ودائمًا يتبع السؤال الأول سؤال يدور حول مشروع النهضة ”كيف تتوقعون أن يتم تنظيمه؟“، إجابتي دائمًا على هذا السؤال هي أن هذا النوع من العمل يحتاج إلى فكرة التيار، والتيار هو أفكار كبرى تخدمها جهود متنوعة للعديد من المهتمين: أفرادا، وجماعات، ومؤسسات رسمية وغير رسمية، تتعاون فيما بينها وفق ما تراه لتحقيق الهدف الكلي، الذي تفرضه اللحظة دون وجود هرم تنظيمي يقوم بقيادة العملية، كما هو معتاد في التنظيمات المؤسسية.

أما مشروعنا الذي عملنا عليه، وأطلقنا عليه اسم مشروع النهضة، فلم يكن يحتاج إلا إلى صاحب الفكرة، ومدير مكتب بدوام جزئي، وأزعم أن المشروع في معظم فتراته كان يُدارُ بشخص أو شخصين، فالعصر وفرَ تقنيات الاتصال والانتقال، والتقنية قللت الحاجة إلى كثرة العاملين، ومع وجود المحبين كانت الجهود التطوعية تسد كل الثغرات، هكذا سارت الأمور، وما زالت؛ لأنه لم يتوفر أكثر منها.

سؤال أين نحن كأمة اليوم؟

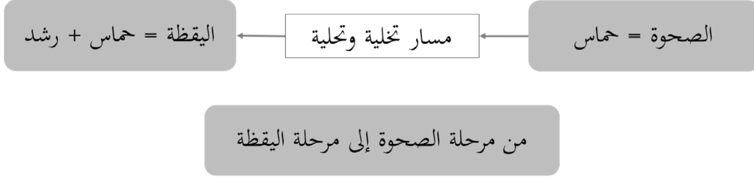
تمر الأمم الراكدة بتحديات شديدة، وتصحو مرتبكة على وقع الأحداث الجسام، وتتخبط في محاولة مجابهة تلك التحديات، وتجرب حلولًا مختلفة للخروج من مأزقها، لكنها في محاولتها للخروج تدافع بشدة عن ذاتها القديمة؛ ولذلك فمفارقة المسالك القديمة في التفكير وأنماط اتخاذ القرار يصعب تغييرها أو حتى مساءلتها. فذلك هو ما أطلقنا عليه مرحلة ''الصحوة''، ولكن مع توالي النكبات والمحاولات الفاشلة تظهر في الأفق دلائل الاعتراض العميق، ومساءلة أنساق التفكير العميقة، وتلك هي طلائع مرحلة ''اليقظة''. في هذه المرحلة، أي مرحلة اليقظة، تتم مساءلة مناهج الفكر والبحث لا مجرد مساءلة المنتجات، فتتم فيها محاكمة كل العناصر والظروف: ''الزمن، المكان، الواقع... إلخ''، التي شكّلت الأسس في بناء تلك المناهج، وهي ليست إلا عبارة عن آلة نحتها وبناها الإنسان / الفقيه / العالم؛ لتساعده في فهم النص. وفي مرحلة اليقظة تتم أيضًا مساءلة نوعية المادة الثقافية المتناولة وعلاقتها بالواقع العملي. كل ذلك حادث اليوم، فبعد استنفاد الحلول لمدة قرن أو يزيد، بدإ التساؤل العميق حول ضرورة إعادة النظر في المنهج ومحاكمته، ومن ثم تطويره أو حتى إعادة بنائه من جديد، فمن داخل المدارس الشرعية ظهرت محاولات تجديد مقاصد الشريعة، كما هي في جهود الأستاذ الريسوني. وتحديد مقامات الخطاب النبوي كما هي محاولات د. العثماني. وتواصلت بجهود الشيخ عبد الله بن بيه في مطالبته بتطوير أصول الفقه شكلًا ومضمونًا، وامتدت الجهود إلى خارج الإطار التقليدي، فظهرت محاولات حسن حنفي ونصر أبو زيد

وأركون والجابري ويحيى محمد. ولا يزال صوت هذه النقاشات مستمرًّا في التصاعد؛ لأنه يعبّر عن الأزمة العميقة التي تعاني منها مناهج البحث والنظر، والتي تعجز عن إجابة أسئلة الواقع المتجدد، والمعقد باستمرار، وتزامن معها تطور مهم، وهو شدة الإقبال على تعلُّم العلوم الإنسانية والاهتمام بها، وهو ما سيقود إلى مرحلة النهضة عبر التخلص من الأفكار الميتة والمميتة، والانطلاق من أسر التخلف ومنظوماته.

من الصحوة إلى اليقظة

مسار إلى الغد الأفضل

من الصحوة إلى اليقظة



إنَّ قضية النهضة تتعلق بالأمم والمجتمعات، ويمكن النظر إلى المجتمعات بثلاثة اعتبارات رئيسية:

إذ يمكن: النظر إلى المجتمع كبنية أو هيكل يتوزع فيه الناس كهرم، في قمته الطبقة التي تصنع القرارات؛ حيث تتركز السلطة والقوة والمال، وباعتبار آخر، يمكن النظر إلى المجتمع كنظام له مدخلات، وعمليات، ومخرجات، ونظام تحكم، وتغذية راجعة تضبط توازنه باستمرار، أما الاعتبار الثالث: فينظر إلى المجتمع كثقافة، وتصورات.

ما يعنينا هنا في مرحلة اليقظة هو النظر إلى المجتمع كثقافة، وتصورات؛ لأنه النقطة الفاصلة بين إمكانية التقدم من عدمها، والثقافة تعني أشياء كثيرة، ولكن يمكن اعتبارها نمط تفكير سائدًا، وأقصد بنمط التفكير هنا البنية المفاهيمية ومنهجية التفكير؛ فالعدل، والحرية، والكرامة، والطبيعة، والوقت، والدين، والمواطنة، والآخر كلها أمثلة لمفاهيم تندرج تحتها مفاهيم فرعية كثيرة، ورغم أن بذور هذه الأفكار موجودة في كل مجتمع إنساني، فإن نضج المنهج، ونضج المفاهيم، بل

ومحتواها مختلفة من مجتمع إلى آخر.

هذه التصورات الثقافية، ومناهج التفكير هي ما يحدد كلًّا من: قابلية المجتمع للتقدم، وسلامة البنية أو الهيكل، وأيضاً سلامة النظام كمدخلات، وعمليات، ومخرجات، ونظام تحكم.. فالمجتمعات التي يختل عندها نظام الأفكار، تعجز عن إيجاد طريق التقدم مهما أُتيح لها من فرص وثروات.

والبنية التصورية، والمنهجية في أي مجتمع هي أعمق ما فيه؛ لأنها عادة ما تكون محروسة بسياج كثيف من الأفكار التي تقوم بحراسة القديم واستبقائه، وكما هي محروسة بمؤسسات بنت وجودها التاريخي على هذه البنية. فهذه المؤسسات كوّنت تحالفها مع العقل العامي واستوطنته، وكوّنت تحالفها مع الساسة، وربما وجد الآخر من الخارج في وجودها مصلحة؛ لأنها ضمانة كبرى لتخلّف المجتمعات، وتيسرله، وتمكّنه من نهبها، وتوجيهها، فهذا التكوين الصلب لوجود وحماية حالة التخلف، ليس بنية ساكنة، ولكن يولد حرسها عبر أعداد ضخمة من المؤسسات في المجتمع، كالمؤسسات التعليمية المتمثلة في المدارس، والمعاهد، والجامعات، فالطالب الذي يتخرّج غير مُحِبٍّ للكتاب، والقراءة، ولا يستخدم المنهج العلمي في رؤية الحياة من حوله، وحل مشاكلها، ولا يرى الطبيعة كنزَ أسرار بل يعتقد أن الحلول موجودة في الماضي البعيد، فيبحث عنها في أضابير التاريخ، أو يستسهل استيرادها من مجتمعات أخرى، وعلاوة على ذلك، لا يمتلك أدوات معرفية للتعاطي مع ما يتم استيراده من منتجات ليوظفها في توطينها،

وعدم الانتباه لذلك، هو بمثابة التخطيط للتخلّف والفشل؛ لأن هذا الطالب هو الذي سيشكّل مستقبل المجتمع؛ إذ هو الذي سيكون في المستقبل متخذَ القرار، والمدرس، والصانع، والعامل، والناشط، وهو حامل لأفكار التخلف ذاتها.

والناشطون كُثر اليوم، ولكن السؤال الكبير هو أي نوع من الأفكار يحملها هؤلاء، لو تركنا بقية الفاعلين كالساسة، وأصحاب القرار مؤقتًا؟ هؤلاء الناشطون الذين يعتبرون النخبة التواقة لإحداث التحول، هل راجعت منظومتها المعرفية ومنهج تفكيرها؟ فالطبيب المتخرّج من أعرق الجامعات العصرية، وساحر القرية كلاهما يقوم بالتطبيب، ولكن الفارق في ما يحمله كل منهما من معارف ومناهج بحث، فهذه الفئة هي المهتمة، والمعنية بالتحولconcerned people ، وهي نقطة الارتكاز في النجاح أو الفشل، حيث تعتبر هي الأهم في أي مجتمع، فهي مرتكز الفعل، ومنها تعبر الأفكار إلى بقية شرائحه، وإليها يتوجه الجهد في مرحلة اليقظة.

ونظرة واحدة، بعد أكثر من عقد ونيف من بداية هذا الجهد المتواضع، تجعلنا نقسّم هذه الفئة المهتمة إلى ثلاثة أقسام باعتبار درجة صلاح إطارها الفكري ومنهج تفكيرها:

- قسم عبر إلى المستقبل مفاهيميًّا ومنهجيًّا، وهؤلاء هم قاطرة المستقبل.

- قسم ناشط يحاول العبور لكنه عالق بين الماضي والحاضر، يضع رجلًا هنا، ورجلًا هناك، يتقدم ويتراجع، وهم يشكّلون غالبية كبرى.

- قسم ما زال من حرس التخلّف يسحب القاطرة إلى الخلف، ويحاول إيقاف عجلة الزمن، وهي قوى مُمكّنة عبر مئات السنين، صنعت مؤسسيتها في الواقع، وفي العقول، وتحالفت مع الواقع السياسي، وكرست أميّةَ المجتمعات لصالح بقائها.

والمستقبل الذي تنشده الفئة العظمى من الشباب لا يمكن أن يتم من خلال المنهج، والمحتوى الثقافي ذاته، الذي أنتج الواقع الذي يريدون الفرار منه، وهم محاطون بمقولات كبرى أحسنت صياغتها قوى الماضي عبر عقود طويلة، وأُنشأت لها البنية التحتية المنهجية منذ قرون، ووظيفتها هي تجميد الوضع بل وإعادته لمحركات التخلّف نفسها التي نعاني منها. ومرحلة اليقظة هي عملية التخلص من ذلك الركام الذي ران على العقول وأنشأ كل هذا التخلف.

والشباب المؤمن بالغد الواعد يحتاج أدوات لعبور هذه المرحلة، أدوات تمكّنه من فهم متطلبات التقدم، وفهم محركات التحوّل، ومشروع النهضة في هذه المرحلة، وهو يعالج مرحلة اليقظة، أطلق سلسلة من الكتب مساهمةً في إنتاج عقلية جديدة تصلح لمهام الإقلاع الحضاري، وهي بعناوينها تبيّن مناطق القصور التي يحتاجها المؤمنون بالتغيير:

1 – كتاب "**من الصحوة إلى اليقظة**".

2 – كتاب "**قوانين النهضة**".

3 – كتاب "**فلسفة التاريخ**".

4 – كتاب "**الذاكرة التاريخية**".

5 – كتاب "**التفكير الإستراتيجي**".

6 – كتاب "**التفكير الكلي**".

7 – كتاب "**قواعد الممارسة السياسية العملية**".

8 – كتاب "**خطوتك الأولى نحو فهم الاقتصاد**".

9 – كتاب "**الجيوبوليتيك**".

10 – كتاب "**إشكاليات التراث الكبرى**".

11 – كتاب "**أزمة التنظيمات الإسلامية**".

12 – كتاب "**التفكير النقدي" لعمرو ياسين.**

13 – كتاب "**أنا والقرآن 1**".

14 – كتاب "**أنا والقرآن 2**".

15 – كتاب "**النسق القرآني ومشروع الإنسان**".

16 – كتاب "**الفلسفة**".

17 – كتاب "**علم الاجتماع**".

18 – كتاب "**بداية جديدة**".

19 - كتاب "**لحظة الإقلاع وتساؤلات المرحلة**"

ومعها دورة 360 درجة على موقع النهضة 4nahda.org.

وتخدمها مجموعة مقابلات على "اليوتيوب".

والكثير من المحاضرات والمقابلات المتفرقة.

وسلسلة "قادة النهضة"، نأمل لها أن تتم إن أمدَّ الله في العمر، وقد بقي مما هو مقرر له سلفًا ثلاثة كتب من السلسلة.

طبيعة المشروع:

بعد مرحلة الصحوة التي مثلت المرحلة الأولى لمشروع النهضة، بدأت مرحلة اليقظة التي يصب فيها تيار عريض اليوم، تيار من مختلف المشارب، يقدم أطروحاته في محاولة عبور الاختناق الحضاري الذي تعيش فيه الأمة، وهذا التيار لا يعمل في بيئة متعاونة في الغالب، فما زالت قوة جذب القديم هائلة، ولكن متعة المرحلة هي في تلك الحوارات، وعمليات الشد، والجذب، وهي طبيعتها المستقرة في الوجود، فدعوات الأنبياء، والمصلحين، لم تعبر للواقع إلا عبر هذا التجاذب الصعب، فقوى الماضي هي معطى طبيعي لمثل هذه الحالة، فالصين صارعت القيود الفلسفية البوذية والغرب صارع فكر أرسطو ومسلمات الكنيسة، واليابان صارعت ثقافة الساموراي، وهكذا مع الأديان، فاليهودية صارعت تراث عبادة العجل الموروثة من عجل السامري

(أبيس) الذي تشربه بني إسرائيل، والمسيحية صارعت اليهودية المنحرفة والوثنية الرومانية، والإسلام صارع تراث الجاهلية في العقول والأنفس. لم يكن عبور النخبة للفضاء الجديد سهلًا، ففي اللاوعي تترسب كثير من أفكار الماضي، ولذلك يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأبي ذر بعد إسلامه وهو من هو: "إنك امرؤ فيك جاهلية"، ويقول للأنصار: "أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!"، فمناهج التفكير المكوّنة عبر قرون من الصعب أن تختفي في زمن قصير، ولذلك يفشل التعليم في كثير من المجتمعات الإسلامية في اقتلاع تلك المناهج والمفاهيم التي أنتجت واقع هذه المجتمعات، فينال إنسانها أعلى الدرجات العلمية، ولكن هذا الواقع لا يزال يشكّل تصورات هذا الإنسان وسلوكه وليس العكس، فالعلاقة بينهما تبدو كطبقة مبنية على طبقات متكاثفة من القديم.

ولذلك يخوض رُوَّادُ اليقظة اليوم صراعين في آن واحد؛ صراع مع الذات لمراقبة أشكال الماضي التي تختفي تحت السطح في أفكارهم هم، وصراع مع الخارج للدعوة إلى الجديد في بيئة مشحونة بالقديم، وفي مجتمعاتنا معركة معقدة بين القديم والجديد تتنامى يومًا بعد يوم، وكلما توالت الإخفاقات زادت حدة المواجهة.

ومن جهة أخرى، اعتقدت النخب زمنًا بالقومية فانهارت، والتحفت بالاشتراكية وانهارت، وأخرى اعتقدت بالشيوعية زمنًا وانهارت الشيوعية، وبقي هناك احتمال ثالث يقوم على أن "الحل في الإسلام"، وانقسم أصحابه حول طبيعة هذا الحل عند تنزله على الواقع، فبرزت فكرة

الإسلام في الدول الملكية، ولكن لم يظهر أنه نموذج مقنع، فانطلق الشباب إلى أفغانستان لأنشاء نموذج من الصفر، فانهارت التجربة، ولحقتها الجزائر بالعشرية السوداء ومن بعدها الشيشان... وانتهى الأمر إلى "داعش" وفظائعها، ووصلنا إلى انفجار السودان مرورًا بكل محطات الربيع العربي... كل ذلك مهّد الأرضية بشكل أكبر لحوارات أكثر عمقًا، فالدعاوى النظرية كذبها الواقع، رغم أن البعض لا يزال يجادل بها، ولكن شهادة الواقع لا يمكن مغالبتها بالحجاج النظري وتنميق القول. كل هذه التجارب هيّأت الأرضية أكثر لمرحلة اليقظة، والتي تتنامى يومًا بعد يوم، وسيُحدث الله من بعد ذلك أمرًا.

عمق المراجعات وآلامها

المراجعات نقطة البدء المؤلمة

عمق المراجعات



كلما زاد عمق الأزمة الحضارية كلما زاد عمق المراجعات المطلوبة

إن كان المطلوب في مرحلة اليقظة ممارسة نقد الأفكار والمناهج السائدة؛ أي مساءلة النظام المعرفي للمجتمعات الذي هو منتج لتلك

الأفكار والمناهج، فيمكن الإطلالة عليه من زوايا متعددة، ومنها مساءلته كنظام كلي، فالمجتمعات والجماعات حين تمارس النقد[1]، تتفاوت في عمق المساءلات، ولنبدأ بأكثرها سطحية ونسير في اتجاه العمق:

النتائج والتنفيذ:

في هذا المستوى، وعندما يصطدم النظام (أيًّا كان) بالواقع، ويعاني من الفشل على مستوى النتائج، يتخذ النقاش طابعًا متعلقًا بالإجراءات واللوائح والشكليات الإدارية بدون مراجعة وفحص الأفكار والمناهج، وقد يدور في ذلك المسلك لعقود دون أن يتغيّر شيء في واقع النتائج، رغم أنها ليست إلا منتجًا لتلك الأفكار والمناهج... ذلك شيء معهود في أكثر الدول والتنظيمات، فيُعْتَقَد هنا بأن كل ما يلزم التعامل معه هو تغيير مراكز الأشخاص (وسيصلح الحال!)، مما أدى إلى عواقب وخيمة وما زالت مستمرة بلا شك.

التنظيم:

أحيانًا يتقدم الحوار، وينتقل إلى نقطة تقول بأن البنية التنظيمية غير مناسبة، فيدور الحوار حول الهياكل التنظيمية، فتضاف وظائف، وتحذف وظائف، وتدمج وظائف أخرى، أو ربما ينتقل الوضع في بعض الدول من نظام برلماني إلى نظام رئاسي أو غير ذلك، فالأزمة تعالج بأنها أزمة هيكل تنظيمي، وليست على أن الخلل موجود في المناهج، والأفكار المشَكِّلة للنظام المعرفي.

---

1) يقصد بالنقد هنا عملية الدراسة والفحص المستمرة لإظهار نقاط القوة والضعف بهدف التطوير والتحسين.

الاستراتيجيات:

الاستراتيجية هي مجموعة اختيارات تتعلّق بطريقة الوصول إلى أهداف الدولة أو المنظمة أيًّا كانت، ويمكن وصفها بأنها تصور شامل لمقاربة الوضع، وربما تكتب فتتحول إلى وثيقة مكتوبة، وهي تتعلق أيضًا باختيار أفضل موقع يسمح بهزيمة المنافس، كما تسمح بربط كل التحركات بمنطق يعطيها نمطًا ومعنى، وأخيرًا هي خدعة تسمح بالإخلال بتوازن المنافس. ويشكّل النظام المعرفي لأي مجتمع الأساس الذي يبني عليه استراتيجيته، فجودة الاستراتيجية، وتطبيقها في الواقع هي متعلقة مباشرةً ومبنية على جودة ومدى صلاحية النظام المعرفي لذلك المجتمع؛ ولهذا فإنّ مراجعة التصور الشامل والأسس التي بنيت عليها الإستراتيجية، والفرضيات المخفية، لا بد أن تخضع للمراجعة والتدقيق مع صعوبتها.

الأيديولوجيا:

يمكن تعريف الأيديولوجيا بأنها نظام الأفكار الحاكم (المنظم للنظام المعرفي) للدولة أو المنظمة أو الفرد، وهو نظام اعتقادي يقدم تفسيرًا لسبب المشكلة التي قام لعلاجها، كما يقدم تأكيدًا مبنيًّا على التاريخ أو الدين (أي من خلال فهم معين للدين) على صحة التشخيص، فيقدم صورة لعالم مثالي في المستقبل إذا حُلّت هذه المشكلة التي حددها، وفي السياسة يقترح آلية لافتكاك نظام القوة، والأيديولوجيا أيضاً تدعي باستمرار أنها عابرة للزمان والمكان. وهذا المستوى من المراجعات مثل ما حدث في البيروسترويكا من تغيير النظام الاشتراكي السوفييتي للنظام

الرأسمالي، فهو تغيير منظومي تتأثر به كل أوجه الحياة.

المفكر والثقافة:

الصانع الأيديولوجي، والمؤثرات الفكرية التي تعرض لها، قد تصبح موضع مساءلة عند مساءلة الأيديولوجيا.

العصر وأفكاره ونماذجه:

ومن أنتج الأيديولوجيا هو ابن زمان ومكان وتجارب وواقع معين عايشها، وقد تصبح هي الأخرى محل دراسة لمعرفة النماذج التي بنى عليها صاحب الأيديولوجيا فكرته.

المنهج:

عندما تكون الأيديولجيات الناشئة عن قراءة التراث متقاربة في مقولاتها ومخرجاتها ونتائجها، فلا فرق في الصميم بين المفاهيم التي يطرحها السلفي والإخواني والتحريري والجهادي، ولا تختلف نتائجها العملية جميعًا من حيث فشلها في تحصيل المراد، وعندما يشمل الفشل الجميع، يعود السؤال لأعمق أنواع الأسئلة الانقلابية في تاريخ البشرية، وهي أسئلة منهج البحث السائد وجدواه، وتلك هي معركة المعارك عندما يكون الفشل عميقًا وشاملًا. ومن هنا نعرف أي نوع من المراجعات نحتاج، وأي مهمة نتحمل، وأي مسؤولية تنتظرنا في الحاضر والمستقبل.

استقراء الواقع ومقارناته

مقارنات مع المتقدمين

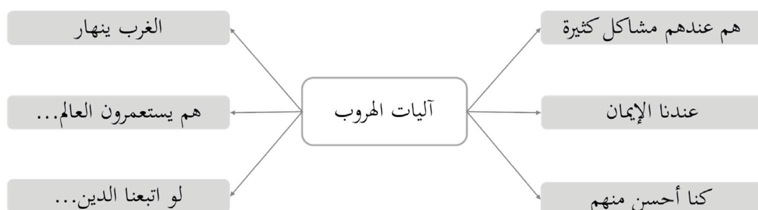
اعتبار	هم	نحن
التوحيد		
زيارة دور العبادة		
الأسرة وتماسكها		
الأخلاق العامة		
النظام العام		
حكم القانون		
النظافة العامة		
التعليم		
البحث العلمي		
الصناعة		
الزراعة		
الاحتكام للعلم		
الطب		
حقوق الإنسان		
القدرة على حماية الذات		
الوزن الدولي		
الاستقرار الداخلي		

الناظر لأوضاعنا من خلال الجدول السابق، لا يجد عناء في معرفة الحال، والنتائج المترتبة على بقائه، ولكننا لا نقارن في الغالب واقعنا بواقع الأمم الأخرى، وإنما نقارن واقعًا متحققًا في عالم الأمم الأخرى (المتقدمة) اليوم، بواقع افتراضي مثالي ليس له وجود إلا في مخيلتنا، وفي المحصلة يَبدُو أن الواقع الافتراضي في أذهاننا يفوز، وواقعنا الحقيقي لا يعكس ذلك، فهو عكس ذلك الافتراضي تمامًا، ففي الخيال نحن متفوّقون، وفي الواقع نحن متخلّفون؛ ولذلك نحن نصطدم بذلك الواقع الذي لا نعترف به باستمرار في كل لحظة من حياتنا، ونعاني من نتائجه دون أن نبذل جهدًا في مواجهته بدل إنكاره.

أدوات الهروب السطحية

الهروب من الواقع

صعوبة الاعتراف بالواقع وأدوات الهروب من المشكلة



بعض آليات الهروب

إنَّ أولى مراحل العلاج، هي الفحص الدقيق والتشخيص السليم للمشكلة، فتفحص أعراضها الخارجية وأسبابها العميقة، ومن ثمّ يتم الشروع في علاجها، ولكن حين يرفض المريض فكرة مرضه، ويختار شتى الأعذار حتى لا يواجه استحقاقات المرض، فإن مهارة أي طبيب لن تنجح في إقناعه بأخذ العلاج.

والبعض فعليًّا لا يعترف بالأزمة العميقة فهو في دفاع مستمر، والبعض يعلم بالأزمة ولكنه يفضل عدم قول الحقيقة للمريض؛ خوفًا من تحطم معنوياته، وفي نظر هؤلاء الناس أن المجتمع أضعف من أن يتحمل فكرة وجود اختلالات عميقة، ولهذا الغرض تم تخليق أنواع مختلفة من الإجابات المضللة وسنستعرض أكثرها شيوعًا:

1 – عدم الاعتراف بتخلُّف مجتمعاتنا، ويتبعها بسؤال استنكاري: ما تعريف التخلف؟ عندها تعلم أن الواقع الحي في كل القائمة السابقة سيختزل في قضية الإيمان المجرد، فذلك هو المحك الوحيد الذي سيراهن عليه، وبما أن ذلك لا يصمد، ولا يحل المشكل فيتم الانتقال مباشرة إلى النقطة الثانية.

2 – وفي النقطة الثانية يتم الادعاء بأنه لو تم النظر إلى هذه المجتمعات بعمق فسيتضح أن مشاكلها كثيرة، فهناك تُرتَكَبُ الكبائر، والإلحاد له حضور واسع، وهناك أيضاً ظاهرة المشردين وظواهر الانتحار، وهم في النهاية مع التقدم الحاصل لديهم غير سعيدين في حياتهم، ويتمنون أن يكونوا مثلنا... وحين لا يستشعر أن ذلك كافيًا يواصل للنقطة الثالثة.

3 – وهي نقطة تبدأ بمقولة لا تنبهر بهم فهؤلاء وحوش استعمروا العالم وأبادوا الهنود الحمر واستعبدوا الأفارقة، وسرقوا خيرات العالم، هم في بلادهم ديمقراطيون ولكنهم لا يهتمون بغيرهم، وحين تهز رأسك متسائلًا، يتابع كلامه للنقطة الرابعة.

4 – هنا تبدأ مقولة ''الدراسات تثبت'' أنّ الغرب في طريقه إلى الانهيار، قال فلان... وكتب علان...

5 – فإن رأى أنك لم تستجب كفاية، انطلق قائلًا: لقد كُنّا أحسن منهم بما لا يقارن في الماضي...

6 – أخيرًا يضيف مُقسِمًا لو اتبعنا الدين الصحيح لكنا خير أمة أُخرجت للناس، ولكننا لا نتبع الدين، فإن قلت له: ''لماذا لا نتبع

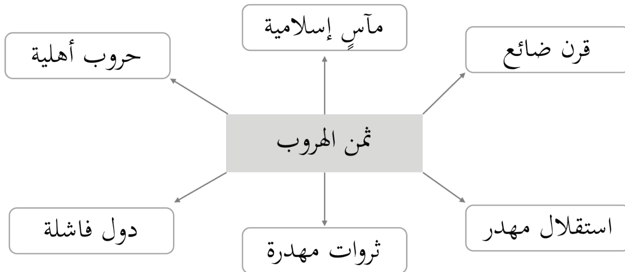
الدين؟''. أجابك: لأننا لا نطبّق الإسلام الصحيح. فإن سألته لماذا لا نطبّق الإسلام الصحيح؟ أجابك: لأننا لسنا مسلمين بحق. فإن قلت: لماذا لسنا مسلمين بحق؟ قال: لأننا لا نطبّق الإسلام الصحيح! ويتسمر في هذه الدائرة بحماس وإصرار، ولكن بعدم الوعي بأنه يتحرك في الدائرة نفسها.

هكذا يمضي الحوار ويستمر، ويبقى المتقدم متقدمًا والمتخلف متخلفًا في دائرته، فتنميق الكلام لا يُغيِّر من الواقع العملي شيئًا، ولكنه نوع من التفريج عن الذات لا أكثر ولا أقل، ولكن يبقى السؤال كم ثمن حالات الالتفاف على حالة التخلف في السباق الحضاري، أو تبسيط المسألة في أنها مسألة تعليم ناقص أو نظام سياسي مستبد أو غير ذلك من الأعمال السطحية؟

ثمن الهروب من مواجهة الذات

تكلفة الهروب

ثمن الهروب من مواجهة الذات



ثمن الهروب من مواجهة الذات

حالة الهروب من مواجهة الذات لدى قطاعات كبيرة من المجتمع أدت إلى الشعور بالأمان الزائف، ورفعت حالة الغضب دون أن تضيف معامل الرشد والبصيرة، وتحوّلت هذه الطاقة إلى فعل في الاتجاه الخاطئ، فعدم معرفة الفجوة التي تفصل أمتنا عن العصر مشكلة كبرى تجد مظاهرها في الاندفاعات غير المحسوبة إلى معارك خاسرة مسبقًا، فأفغانستان والشيشان وسائر المعارك أهلكت الآلاف من الشباب من غير عائد يُذكَر، وولدت مآسي لا حصر لها، وعدم الكشف عن الاختلالات الداخلية الدينية والعرقية والطائفية والمذهبية والجهوية والسياسية والاقتصادية انتهى بحروب أهلية داخلية دارت على الهويات، ولم يجنِ أحد منها إلا الدمار، وانتهى القرن بمليارات مهدرة ودول فاشلة وقرن ضائع.

البحث عن الأسباب العميقة للإخفاق

جوهر الأزمة

البحث في الأسباب العميقة للإخفاق



التركيبة الأساس للعقل

ابدأ باقتباس حول الصورة الأكبر لمصادر المعرفة:[1]

مصادر المعرفة:

يستخدم الإنسان العديد من الطرق ليحصل على المعرفة التي تجيب على أسئلته واستفساراته عما يحيط به من ظواهر، وهي:

1 – الخبرة الذاتية للإنسان.

2 – أهل الثقة والحجة الذين يعتمد أقوالهم.

3 – التفكير الاستنباطي.

4 – التفكير الاستقرائي.

5 – الطريقة العلمية.

1) (مستفاد بتصرف من كتاب: مناهج البحث في العلوم النفسية والتربوية، رجاء أبو علام).

أهل الثقة والحجة كالمصادر الحكومية والمؤسسات الدولية، والمراكز البحثية.

– من الملاحظ أن هذا المصدر لدى هذه المؤسسات يقدم معلوماته بطريقة علمية تختلف عن مفهوم أهل الثقة والحجة لدى كثير من المسلمين، الذين يثقون بالأفراد المتخصصين بعلوم الشريعة (شيخ أو داعية)، واعتبار كلامه حجة دينية تحظى بالقبول والثقة دون النظر في مصادر هذا الشيخ أو الداعية، ومنهجه في فهم النص الديني، وطريقة تفسيره له.

– بخصوص التفكير الاستنباطي (قياس الخاص على العام لاندراجه فيه)، كقولنا في النحو: ''كل فاعل فحكمه الرفع، وهذا فاعل، إذن هذا حكمه الرفع''، فإن أحد أدواته القياس... وهي أداة شائعة في التراث الفقهي، ويكاد يكون جل الفقه الإسلامي قائمًا على هذه الأداة، وهي أداة فعّالة في مجالها، لكن وجه القصور يكمن في أهمية التأكد من الانطلاق من مقدمات صحيحة، لا مقدمات افتراضية أو اعتقادية فحسب...

ولكن كيف يمكن التأكد من صدق المقدمات؟

هنا يأتي دور الطريقة الاستقرائية، حيث يتم الإحاطة بكل ظروف وملابسات الواقعة قبل جعلها قاعدة ارتكاز قياسية،

وهذا ما نادى به فرانسيس بيكون، والذي طالب باتباع طريقة جديدة للمعرفة، تبدأ بالاستقراء أولًا ثم يليها الاستنباط ثانيًا...

لكن ما يحصل لدى جُلّ المشتغلين بالعلوم الإسلامية، هو عدم التنبه لمرحلة الاستقراء قبل الاستنباط...، فينطلق الباحث من

”معتقده“ ليجعله مقدمة يقيس عليها، لا من نتيجة استقراء واقعي فمثلًا لو عالج قضية مثل: النصر منطلقًا من قوله تعالى: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ} [محمد: 7]، ليقيس عليها، لوجب أن يدرس حالات النصر في الواقع الحي ابتداء، ليتأكد من شروط فاعلية القانون في الواقع قبل تعميمه، ومن ثم القياس عليه.

الطريقة العلمية التجريبية هي الطريقة الأنسب، والأكثر ثباتًا، تجمع بين الطريقة الاستقرائية والاستنباطية، لكنها تزيد على الطريقة الاستقرائية غير المختبرية بوضع الفروض في بداية البحث.

تكامل الاستقراء والاستنباط: (الحكم على الشيء فرع من تصوره)

إن أكبر الأسئلة التي نستهل بها هذا البحث هي:

- لماذا ضمرت العلوم الإنسانية عندنا وبتنا نستعيرها من الأمم الأخرى؟
- لماذا لم ننتج أدوات علمية لسبر الواقع وفهمه، كما استقر في العلوم الإنسانية، ومناهج بحثها للواقع؟
- لماذا لم ينمُ عندنا الحس الإحصائي وثقافة الأرقام؟
- لماذا سارت فتاوانا في اتجاه وتحرك الواقع في اتجاه آخر؟

ونحن هنا لا تعنينا مساءلة الفقه والفقيه بقدر ما يهمنا مساءلة العقل الجمعي، وطريقة تفكيره، هل عقلنا مرتبط بالواقع؟ فهو يناقش

فيه، وينطلق منه، ويعترف بمعطياته، ويجعله في جدل متصل مع النص والقاعدة، أم هي عملية تنزل من الأعلى إلى الأسفل دون جدل حقيقي منتج؟

إنَّ عمليات التفكير تتناوب بين الاستقراء والاستنباط، فالاستنباط: عملية عقلية يتبنى فيها العقل مقدمة كبرى، ثم ينطلق باحثًا عن مقدمة صغرى ليولد منها نتيجة منطقية، فيمكن لقائل أن يقول مقدمة كبرى مثل ''إن تنصروا الله ينصركم''، ثم يتلوها بمقدمة صغرى ''نحن نصرنا الله''، ليخلص إلى نتيجة منطقية ''الله سينصرنا''، وهكذا لو قال: ''كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله''، و''نحن فئة قليلة''، ويستخلص منها نتيجة مفادها ''نحن سننتصر على الكثرة''؛ فحين نقرأ التاريخ والسياسة والاقتصاد وكل ما يحيط بنا بمنهج استنباطي دون أن ننظر إلى الواقع على الأرض، وما يُعطينا من حقائق نفقد أهم معطى من معطيات التقدم.

أما المنهج الاستقرائي فهو برغم احتماليته فإنه غالبًا نتيجة استقراء ناقص، لا يستوعب كل أفراد الظاهرة، فرؤيتنا لمليون غراب أسود مثلًا لا تستوعب كل غربان الأرض، ولكن تعطينا احتمالًا عاليًا في النتيجة على خلاف رؤية عشرة غربان سود، وبالرغم من احتماليته، فإنه يبدأ بالواقع ومعطياته، ومنه يستخرج التعميمات، وبعدها يمكن القيام بعملية الاستنباط والتفسير واتخاذ القرارات.

حين ننظر إلى الصورة العامة للممارسة العقلية عندنا نجد أن نمط الاستنباط سائد، فإن أردنا أن ننظم السياسة ذهبنا إلى نصوص معينة،

واستخرجنا نظامًا دون استقصاء كل النصوص، ودون نظر لواقعها في الحياة العملية، وإن أردنا أن نحل مشكلة تاريخية لم نستقرئ الواقع التاريخي بمنهجية تاريخية، بل اخترنا موقفًا عقديًّا بعينه، ثم حشرنا الواقع فيه، وإن تكلمنا عن الاقتصاد لا ننظر إلى الواقع، وما يدور فيه، بل نذهب، ونبحث عن نصوص تكلّمنا عن واقع افتراضي، بينما الحقيقة أن ما نقوم به هو من ضمن هذا الواقع الحي لا الواقع الافتراضي، فالجدل مع الواقع ضعيف.

إنّ النص أيًّا كان يُفهم معناه، فهو أمر في العقل، أما شروط عمله فهي أمر في الواقع، وقد سبق أن استخدم المسلمون الاستقراء؛ لأنه عمل عقلي لا مناص منه، وعلى هذا تأسست قواعد اللغة العربية عبر استقراء أحوال الكلمة في الجملة العربية، واستخدمه واضعو المقاصد الشرعية في استنباطها، كما استُخدِمَ أحيانًا في مسائل فقهية، واستخدمه أيضًا ابن خلدون في منهجه التاريخي، ورغم أن الفقيه تكلّم عن الحكم الوضعي في مقابل الحكم التكليفي؛ أي عدم إجراء الحكم إلا إذا ثبتت شروط، وانتفت موانع، فإنّ أدوات سبر الواقع بقيت محدودة، فلم تنشأ مناهج البحث الاستقرائي في الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعسكري كما حدث في الأمم الأخرى.

لقد أبدع المسلمون بتطوير المنهج العلمي لاختبار النظريات والفرضيات داخل المعامل في بدايات نشاطهم العلمي، واستمر التجريب (الإمبريقية) في بعض المجالات المحدودة كالعطارة والأعشاب والطب، ولكن ذلك لم يتطور ليصبح نمطًا سائدًا في العقل الجمعي، ولم

يشمل مجالات الحياة الأهم في السياسة والاقتصاد والاجتماع.

ولو عدنا إلى مثالنا عن التعامل مع آية مثل: {إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ}، واستقرأنا الواقع العسكري للنصر والهزيمة في تاريخ البشرية، وواقع المؤمنين عبر التاريخ، بهدف التعرُّف على تلك الشروط التي انتصروا فيها، والشروط التي انهزموا فيها، من حيث تكافؤ القوى، معنويًّا وماديًّا، ومن حيث الظرف السياسي والاقتصادي والاجتماعي المحيط بالأحداث، لأمكننا أن نرسم بالاستقراء حدود المعنى المراد على وجه الاحتمال، وعرفنا مستلزمات تحقيق النصر في المعارك؛ لأن كل ذلك هو أمر في الواقع، وفي مختبر الحياة، ولقد قبلنا بالعقل أن نقول: إن آية مثل {وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا} [يوسف: 82]، لا تعني سؤال العير، ولكن تعني سؤال البشر في القافلة؛ لأن العقل يحيل الأولى، والواقع يثبت استحالة الحديث مع العير، ولكن تلك القضية البديهية لم تعمل أكثر من ذلك، ولم يدخل الواقع في الاعتبار بثقله الحقيقي كمُبيّن ومفسر.

إنّ التفاعل بين النص والواقع الذي يظهره القرآن في كل آياته تجمّد، ولم يصبح منهجًا نسيّر به حياتنا، بل انكفأنا حول منهج استنباطي جعل بحوثنا في معظمها بحوثًا في النص بعيدًا عن الواقع، فأصبح عملنا العلمي يدور في فضاء المقررات المسبقة، وليس في واقع الإنسان الحي، وما يقدمه من دروس، وكثير من أعمالنا تصبح من شاكلة أعمال المتكلمين؛ حيث يصبح الإنسان باحثًا عن الدليل المؤيد لمعتقده المسبق، لا باحثًا في الواقع عن حقيقته التي يؤول إليها عندما

يلتقي بالوقائع والشخوص.

وفي دراساتنا التاريخية، يتضح حجم الخلل الذي أحدثته غلبة المنهج الاستنباطي على المنهج الاستقرائي، فالنظام السياسي لم يدرس باعتباره أمرًا في الواقع، تؤخذ عيناته وطبيعته وآلية اشتغاله من الواقع، ويعطى حلولًا من الواقع تقربه من الصلاح، وإنما تمت شرعنة الواقع بدعوى منع الفتنة وباعتبار الضرورة، واعتبر النظام السياسي رهينًا بصلاح الفرد، ولم تتطور فكرة النظام الصالح وآليات توازنه، وهكذا تعطلت حركة الأمة الفكرية في أهم جوانب حياتها.

لقد تكلّم الفقهاء عن فقه النوازل، وتكلموا عن فقه الضرورة، وذلك بديهي، ففي الحياة ضرورات ونوازل، تحمل طابع المفاجأة والقسر، ولكن الحياة فيها مبدأ التغيير، والتغيير الذي تحدث عنه الفقهاء الأوائل كان يدور في مجتمعات بطيئة التحول، قليلة التجدد، ولم يتخيل أحد في تلك العصور أن تطوى الأرض للبشر جميعًا، وأن يصبح التواصل بين البشر بضغطة زر مهما تباعدت أقطارهم، وأن يطير الإنسان، وأن يغوص في الماء كالأسماك، فكل ذلك كان عملًا يحتاج إلى أولياء أو عفاريت، بينما حوّلته التقنية اليوم إلى أمر عادي، ومنحة للجميع، هذا التغير الهائل واليومي المذهل لم يخطر في بال أحد حين ولدت المناهج الفقهية، ولا يمكن إدراجه في فقه النوازل أو فقه الضرورات، كما يتردد، بل هو معطى ثابت يسير في خط متصاعد، ويترك آثاره الاجتماعية، فمواكبته تعني دراسته وفهمه، لا مجرد انتظار زواله أو الدعاء عليه أو التأفف منه أو حتى استدعاء أحاديث آخر الزمان.

إن الكثير من الفقهاء اليوم ينظرون إلى هذا الواقع، ويعتقدون أن الممارسة الفقهية تحتاج إلى تغيرات طفيفة، وستقوم بعملها، وتؤدي غرضها، ولكن الأمر لا يسير في هذا الاتجاه، فإدماج تقدم الإنسان في العلوم الإنسانية وتعقيداتها، لا يقل خطورة عن تقدم العلوم التقنية، وفي كثير من الأحيان نحتاج إلى قلب المعادلة، فإيجاد السياسي الذي يفهم النصوص المتعلقة بمجاله، وإيجاد الاقتصادي الذي يفهم النصوص المتعلقة بمجاله، وإيجاد العسكري الذي يفهم النصوص المتعلقة بمجاله، وقل ذلك عن سائر التخصصات، أسهل بكثير من محاولة إفهام متخصص في الشريعة هذه المجالات وتعقيداتها، وهذه المجالات الخطأ فيها يكلّف ملايين الأرواح، والمليارات من الأموال، وتعقيدها شديد، فعندما تشتبك السياسة بالاقتصاد وبالأوضاع الدولية، فالحاجة إلى عقلية مركّبة تجمع حقولًا عدة، وتوفق بين مقتضياتها لا يتيسر إلا لمِن يعايش هذه المساحات، ويدخل في موازناتها، وهي موازنات في الواقع لا في المجرد الذهني والأحكام المسبقة.

من جانب آخر، فإن العقلية الاستقرائية تؤمن بالنسبي، وبأن التجربة البشرية ممارسة في لحظة تاريخية، تحدث وفق معطيات تلك اللحظة، وتترك القوس مفتوحًا للمعلومات الجديدة والتحولات المقبلة، وهي عقلية تقوم على التجريب قبل التعميم، وتؤمن بصدق التجربة، فلا تكرر الحلول العقيمة ذاتها المرة بعد المرة، على عكس العقلية الاستنباطية التي تؤمن أن العالم سيتحول تبعًا لمقرراتها، فالدعوى بأن الأمر الفلاني حله كذا، تتضمن أن هذا الحل محتمل حتى تتم تجربته، فإن لم يعطِ النتائج المرجوة منه أو أدى إلى إضرار أكبر من الفائدة،

أعيد النظر فيه، وتمت تجربة غيره، هكذا يتقدم العالم، فعالم التجربة ليس مقصورًا على المختبرات البحثية، بل هو حياة بذاتها، فيها الجانب النظري، وفيها اختبار النظرية، وفيها إعمال الحلول، وفيها مراجعة الحلول وفق معطيات الواقع.

إن ميزان إعطاء الواقع حقه وثقله وإعطاء التغيير مكانه في العقل عندنا، هو درجة حضور البحوث المتعلقة بالواقع في مقابل البحوث النظرية الصرفة المعزولة عن الواقع، بحيث تصبح نتائج تلك البحوث هي مقدمات التفكير، وبعدها تتم بقية العمليات (فالحكم على الشيء فرع من تصوّره).

العلاقة مريضة بالزمن

العلاقة مريضة بالزمن



إلى أين نسير؟

إن الزمن عند بعض الأمم ثروة يتم التنافس عليها، ويُقدَّرُ به مدى تطورها، فالأمم الحية تشتهر بالدقة في تحديد الآجال، والدقة في الالتزام بالوقت، وتشتهر بتنظيمه، على عكس الأمم المتخلفة، حيث الوقت عبء يتنافس الجميع في إهداره، وذلك مفهوم معلوم ولا يحتاج إلى بيان.

لكن تصلني الكثير من الرسائل التي يريد أصحابها تقديم رسائل الماجستير والدكتوراة على سبيل الاستشارة قبل تقديم مقترح البحث، فهذا يريد أن يبحث في موقف ابن تيمية من المغول، وذاك يحقق رسالة للحارث المحاسبي منسية، وثالث يبحث في معركة حطين، وأتابع القصص وكتّابها عندنا وهي تتكلم عن الغوص والبحر والبادية، وأراقب مناشطنا واحتفالياتنا وهي تتكلم عن المواضيع ذاتها، بل وحتى كتب المدارس وفي وجود الجيوش الحديثة تفضل صورة الفارس والسيف، ومعاركنا تدور في الماضي، فهذا يريد نقاش مسألة الأسماء والصفات،

وذاك يقاتل المعتزلة والمرجئة والخوارج ويستل صارم لسانه ليكيل لهم الضربات منتشيًا بالنصر، وآخر يعيد في معارك السنة والشيعة، وآخر يريد أن يدور الزمان ليتقاتل الناس بالسيف والمقلاع، وأما المتشدد حين أراد أن يصنع "دولته" في هذا العصر، فبعد أن سفك دماء العباد، وهتك الأعراض، ونهب الأموال، قرر أن يلبس ملابس يظنها هي ملابس الأقدمين، وأن يتكلّم بلغة قرأها في كتب التاريخ، وأن يمارس ممارسات القرون الوسطى، وغيّر الأسماء إلى الكنى، واختار من الكنى ما اندثر من الأسماء.

فنحن أشبه بإنسان يسير ورأسه ملتفت للخلف، ومهما اصطدم بالأشياء أمامه فهو يرجعها إلى ما يراه في الماضي، فالماضي هو ملاذه، وما يتمناه، كل شيء في الحاضر يُقاس على شيء في الماضي ليستخرج له حكمًا وصورة أو عبارة أو بيت شعر، فالحاضر لا بد أن يلبس ثوب الماضي.

فعملية البحث عن الخطط والبرامج والأسانيد مثلًا لا تتم في الحاضر، وإنما يتم البحث عنها باستمرار في الماضي، فالعالم الفلاني الذي توفي منذ ألف عام مثلًا يتم استحضاره كشاهد في قضية لم تخطر في باله قط، فمعطيات واقعه في ذلك الزمان ما كانت لتنتج مثل تلك القضايا، والحادثة التاريخية في حي من أحياء بغداد في زمن المأمون يتم استدعاؤها بدعوى التشابه إلى لندن، فالحاضر نفسه لا يتجلى إلا في مرآة الماضي.

أما المستقبل فهو محكوم بنظرية سوء الزمان "فلا يأتي زمان إلا

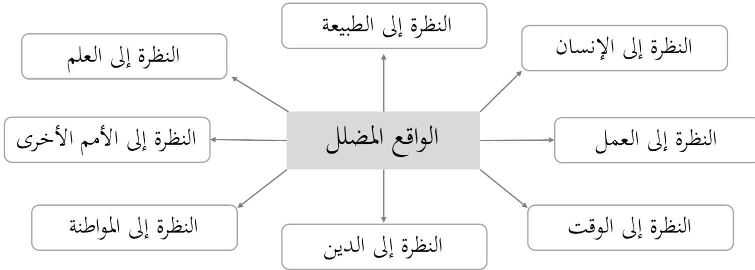
والذي يليه شر منه''، فمهما فعل المسلم فالأمر إلى تدهور، ولا حل لوقف التدهور إلا بظهور المهدي، ففلان رأى رؤيا، وعلان قام بحسبة قرآنية رياضية، ومنها استنبط أن العالم سينتهي بعد ثلاث سنوات، كل ما علينا هو الانتظار ثلاث سنوات وتُحَلّ المشاكل، لكن ماذا إذا فات الموعد، لا بأس، فهناك متنبئ آخر سيعطي موعدًا آخر، ففي أمم الأرض الإنسان سيد مصيره، يكافح في غرس فسيلتة مهما ساءت الأوضاع أو تحسنت، فهو يرى غده خيرًا من أمسه، وهو يستشرف المستقبل ويستعد له وهو في سباق ''أيكم أحسن عملًا''، فلا تكاد أمة تتقدم بفتح علمي حتى تطاردها أمة أخرى بفتح جديد.

إن علاقتنا بالزمن مريضة، وغير سوية، ولا يقظة إلا بمعيار استثمار الزمن، والإيمان بأن الغد الأفضل مقبل، وهو نتيجة عمل وتخطيط وحركة تستبق الزمن، وتنظر إلى المستقبل وتعمل له من نقطة الحاضر.

الأشباه والنظائر والمعايير الثمانية

شبكة المفاهيم الضرورية للتقدم

الأشباه والنظائر والمعايير الثمانية



المجتمع وقابلية التقدم في العصر

إن مصاحبة البشرية منذ فجر بزوغها ورؤية نمو القيم وتطورها عبر العصور، تظهر لنا بوضوح أن نمو القيم والمفاهيم وتغيرها يتم عبر الزمن، فتتسع وتصبح أكثر تفصيلًا، وأكثر اقترابًا من الواقع الحسي، والإجراءات العملية أقوى من الوعظ المجرد، فما هو الإطار الحاكم للقيم التي تحتاجها أي أمة؟ وكيف نقيس إمكانية التقدم من عدمها؟

في العالم أمم متقدمة تمتلك ناصية العلم والنظام والتقنية، وفي العالم أمم فقيرة تفتقد البنية التحتية والخدمات الأساسية، ناهيك عن وسائل الرفاه، وهناك صنف من الأمم يمتلك البنية التحتية وكل الأشكال الخارجية والمظاهر الموجودة في الدول المتقدمة، فالبنية التحتية متوفرة، والتعليم متوفر، والوظائف متوفرة، وآخر مقتنيات التقنية متوفرة من

السيارات والحواسيب، فكل شيء على السطح يبدو متقدمًا ولكن في العمق كل شيء يعتمد على صدفة حسنة، إما موقع تجاري متميِّز أو غاز أو بترول، وبما يوفره الموقع أو المورد من معطيات يتم الصرف على كل ذلك، فالظاهر جميل ولكن القاع فارغ من المعطى الذاتي والجهد البشري، ولفحص المجتمع تقدم العلوم الإنسانية طريقة لرؤية قاعه وقابليته للتقدم، فالمجتمع يمكن أن يعاير بثمانية معايير، والسؤال هنا ليس عن نصيب أي مجتمع من هذه المعايير، بل عن نصيبها في عقل كل منا وفي سلوكه:

كيف ننظر إلى الإنسان وكيف ينظر المجتمع إلى الإنسان؟

إن النظرة إلى الإنسان ومكانته الوجودية وما يستحقه من تكريم مادي ومعنوي، بغض النظر عن لونه وعرقه وجنسه هو أساس وجوهر التقدم، فالحرية والعدالة والمعاملة في أرقى معانيها لا تتم في أي مجتمع إلا بإصلاح النظرة إلى الإنسان، فالكرامة الوجودية للإنسان تتجلى في كل صغيرة وكبيرة من سلوك إنسان المجتمع وقراراته، سواء كان هذا الفرد شخصًا عاديًّا في المجتمع أم في قمة هرم المجتمع.

حين ننظر إلى المجتمعات فنرى امتهان المرأة، وسوء معاملة الأطفال، وسوء معاملة العاملين والعاملات في المنازل، وسوء معاملة أهل البلاد لغيرهم، وسوء معاملة أجهزة الدولة للمواطنين، وسوء معاملة الحاكم للمحكومين، وسوء معاملة أصحاب الأديان لغيرهم، في كل ذلك نشهد تشوّهًا في النظرة إلى الإنسان جذرية ومدمرة.

كيف ننظر إلى العلم؟

كل المجتمعات تقوم بشكلٍ ما بالتعليم، وبعض المجتمعات تخلّصت حتى من أمية الحرف ولكن حالها لم يتغيّر، فالتعليم الذي لم ينجز أمرين:

1 – حب الكتاب.

2 – استخدام المنهج العلمي في معالجة شؤون الحياة وأسئلتها.

فالتعليم في مجتمعاتنا لا ينتج إلا موظفين، ومطالبين بالحقوق، ولا يصنع مبدعين ومفكرين، وشوارع الوطن العربي تمتلئ بالخريجين، ولكن التعليم لم ينجز موعوده في حب الكتاب والعلم واستخدام المنهج العلمي، فالشهادات أوراق وليست بشرًا يتحرك، فإن قلبنا المعادلة ولد المجتمع الجديد. والمنهج العلمي ليس هو فقط المختبرات والمعامل والروبوتات والمصانع، ولكنه منهج في الحياة يُستَخَدم لتفسير الظواهر، وهو وسيلة لبحث العلوم الإنسانية، واتخاذ القرارات الاجتماعية، وأيضًا رفض للخرافة والوهم، كما هو تفكير ناقد، يطالب المفاهيم بالتعريف والقضايا بالأدلة.

كيف نرى الطبيعة؟

هل الطبيعة بالنسبة لنا كنز أسرار نحن شغوفون بقراءته واكتشاف أسراره؟ أم هي وجود ساكن ربما نستمتع بجماله ونمضي غير آبهين بأسراره؟ إن العالم المتقدم اليوم في سباق لاكتشاف الكون وتطويع تلك الأسرار لقوة أممه، وكل أمة تتأخر في دخول السباق، تتخلف عن ذلك الميدان العملاق.

كيف نرى العمل؟

العمل هو بذل جهد في وقت للحصول على نتيجة بمواصفات معينة، فهو جهد ووقت ونتيجة ومواصفات، وأمم الأرض تتفاوت في الإحسان في كل ذلك، فبعض الأمم يشتهر أهلها بالنظام، وبذل الجهد والوقت والحرص على الإنتاج، والحرص على الجودة، وبعض الأمم تشتهر بعكس هذه المواصفات، وفرص الأمم في التقدم مرهونة بنظرتها إلى العمل واحترامه.

كيف نرى الوقت؟

هل هو عبء نريد التخلّص منه أم هو ثروة نريد أن نستزيد منها؟

كيف نرى الدين؟

إن الدين رابط روحاني بين المخلوق والخالق، يقود إلى حسن الخُلق مع الخَلق، ويقود إلى إتقان العمل، وتقديم العون للخلق، وعلامة الصلة تحقق آثارها في حياة المجتمع، رقي الصلة بالخلق كل الخلق (بغير قيود لاتصاله بالكرامة الوجودية للإنسان)، وإتقان العمل كل العمل (فكل الأعمال تغدو صالحة بحق وموصلة للجنة).

كيف نرى العلاقة بين المواطنين؟

هل نحن مجتمعات تحرص على المساواة أم تحرص على طلب الاستعلاء والتمايز؟ فالمجتمعات التي تتصارع من أجل صناعة هرم السادة والعبيد تؤسس لخرابها.

كيف نرى العلاقة بالأمم الأخرى؟

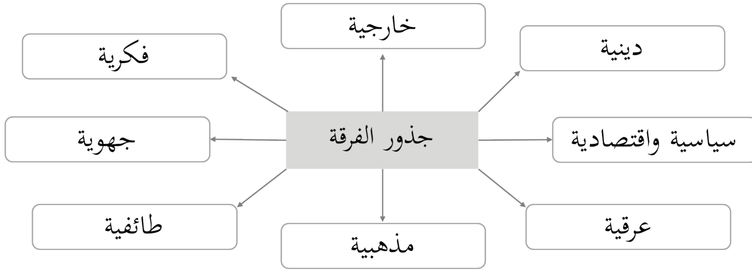
هل نريد أن نبني جسورًا للتفاهم والتعارف وتبادل المنافع أم قلاعًا وحصونًا لتبادل إطلاق النيران؟ فثقافة المجتمع تحدد قدرته على الاختلاط بالعالم والتعاون معه.

فمعركة اليقظة هي معركة لإيجاد الأساس الذي يسمح بإطلاق طاقات المجتمع وممكناته.

بذور الانقسام وشجرته

بذور الانقسام وحالة الضعف

بذور الانقسام وفروعه



لماذا نختلف؟

الاختلاف أصل وجودي:

{وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ} [هود: 118 - 119]، و{وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: 103]، هذه الآيات بيان صريح وواضح أن هناك اختلافًا بين البشر بأصل تكونهم، وهذا الاختلاف في الأفكار، والألسن والأديان والمذاهب والمصالح كما هو في المناطق والقبائل والأعراق، ومع ذلك فهم يعيشون على كوكب واحد، ومطلوب منهم وقف الفساد ووقف سفك الدماء.

بين خطوط الاختلاف وغياب العدل:

فكما أنّ خطوط الاختلاف أعلاه موجودة في كل مكان وزمان،

فهي في حدِّ ذاتها ليست المشكلة، ولكن تمر عليها رياح السياسة، وتولد السياسات التي تصنع التمايز، والأفضليات، فتوقظ نوازع الغضب، وتبذر بذور الشقاق، فهناك آفات ثلاث تحوّل ما هو طبيعي إلى ما هو سياسي مطلبي:

- سياسة الاستعلاء.
- سياسة الاستعداء.
- سياسة الاستدعاء.

فسياسة الاستعلاء تبدأ مع وصول مجموعة في السلطة تعتقد بأنها أحق بالسلطة والثروة من غيرها، فتقسم المجتمع إلى طبقات المفضلين والمنبوذين، ومع روح (الاستعلاء)، تولد لغة تحط من قدر الآخر الذي تصنفه مختلفًا، ومع طول الزمن تصبح تلك اللغة متأصلة اجتماعيًّا، ولها تجلياتها الاقتصادية والوظيفية، وهذا ما نصفه بـ (الاستعداء) أي خلق العداوة الظاهرة، وهنا تولد الظروف لينفس أولئك المحرومون عن غضبهم بأشكال عدة، بدايةً في شكل اضطرابات في المجتمع، وصولًا في الكثير من الحالات إلى حروب أهلية، ويصبح المجتمع هشًّا، وتولد نزعة "الاستدعاء"، أي طلب الخارج للتدخل، ومع وصول الخارج يفقد أطراف النزاع استقلالهم، وتولد الدولة الفاشلة.

إكساب المسكوت عنه لغة:

يحدث أن تقع النزاعات والاختلافات داخل الوطن الواحد، أي في

الشعب السياسي الذي تربطه الأرض أكثر من العرق واللغة والدين، أو كما هي بين الأمم حيث إن الأمة أوسع من الدول، فقد تتوزع أمة تشترك في الدين والعرق أو أحدهما على دول عدة، إلا أن النزاعات في كل الأحوال تبقى سهلة ما لم تتولد مظالم كبرى، وجروح غائرة تشكّل الوعي، وتتحول إلى ثقافة متناقلة تتزود من كل خطأ، بعدها بغذاء ينمي روح الفرقة والانقسام، فحالة الشعور بالمظلومية تكتسب لغتها عبر رواية سردية للأحداث المؤلمة، وذاكرة مكتوبة، وشعر، وغناء، ويتم توريثها للأجيال باعتبارها طريقًا للمستقبل، ومشروعًا لاستعادة الحقوق، وتمثل: السودان والعراق وسوريا مظاهر حادة لهذه القضية المركبة؛ حيث إن الصراعات ولدت أدبيات وذاكرة مشحونة علاوة على ما تتيحه وسائل التواصل من تفريغ لهذا الشحن، وما يضيفه الإصرار على عدم الحل أو التجاهل التام للقضايا من مشاكل.

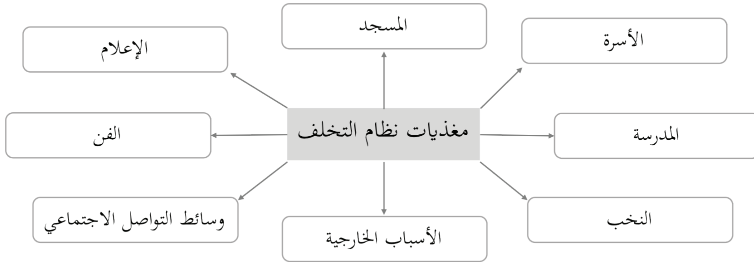
الخروج من النفق:

هو ابن وعي جديد بما حدث في الماضي، والاتفاق على مستقبل مختلف بين أطراف الوطن الواحد، فالماضي بدون تفكيك مفرداته كما حدث في جنوب إفريقيا عبر "المصارحة والمصالحة"، أو ما حدث في البرازيل عبر "العفو المتبادل"، أو ما حدث في رواندا وسمي "العدالة التشاركية"، وترجيح المستقبل على الماضي عبر وعي بالمصالح الكبرى، وقيادات تتسامى على الصغائر كما حدث في الهند وغيرها.

مغذيات النظام المعتل

التنشئة والتوجيه المعتل

مغذيات النظام المعتل وحراسه



لماذا يستمر التخلف؟

قلنا إن هناك أسسًا للمجتمعات المتخلفة، فهناك سطح يظهر فيه قصور النظم قد تكلمنا عنه عند المقارنة بين المجتمعات المتخلّفة وغيرها في النقطة (4)، وأوضحنا أن ذلك كله يتأسس على منهج يؤثر الاستنباط على الاستقراء، كما بيَّنا في النقطة (7)، ويتجلى في العمق عبر تصورات مختلة عن العالم بيَّناها في النقطة (9)، وشرحنا آثار الانقسام على المجتمعات في النقطة (10)، فنظام التخلّف له مغذياته، ومصادر تبقيه حيًّا:

النخب المتشاكسة:

النخب هم مجموع المؤثرين في صناعة القرار في أي مجتمع، وعلى ذلك هناك في السياسة نخبة الحكم، وفي الاقتصاد نخبة المال، وهكذا في كل مجال نخبته، والمال والسياسة متلازمان ونخبتهما تكاد تكون واحدة، والنخب السياسية في المجتمعات المنقسمة إما أن تكون جزءًا من المشكلة (متشاكسة)، أو تكون صانعة الحل (متوافقة)، فهي إن جدفت في صالح الجميع، وسعت إلى التوافق والحل العاقل، كان ذلك لمصلحة الجميع، وإن تشاكست، وعاندت يخسر الجميع، وتنهار الأوطان، والنخب صانعة القرار، إما أن: تتبنى سياسات عادلة، فيشعر الجميع بالإنصاف أو أن تخلق أفضليات تقود إلى الاختلاف والتشاكس، والانتقال من النخب المتشاكسة إلى النخب المتوافقة هو رحلة عمل شاقة تقتضي:

- فهم المطالب المختلفة لجميع الأطراف.
- تمييز الأساسي منها والفرعي.
- معرفة الحد الأدنى المطلوب للتوافق.
- وجود مفهوم التوافق ومفهوم ترجيح مكاسب المستقبل على حل آلام الماضي.
- وجود الرغبة في العيش المشترك.

فالنخب نقطة ارتكاز أي مشروع لوطن، وبدونها تصبح بقية

الأحلام سرابًا، وهذه النخب إما أن تكون جزءًا من مغذيات نظام التوافق، أو جزءًا من نظام الانقسام والضعف.

نظام التنشئة:

نظام التنشئة كاملًا هو منطقة الاشتغال الجوهرية؛ لأنه إما أن يورث روح الألفة والتفاهم أو روح الكراهية والعنصرية، ولذلك فإن سلامة جهاز التنشئة المكون من عناصر عدة هو الضمانة الكبرى لسلامة الأوطان:

- المنزل والوالدان، وما يُكتب في ذاكرة الطفل، وما يتداوله من روايات، وما يمارسه من طقوس، وما يتيحه من علاقات اجتماعية، كل ذلك يعد الفرد ويوجهه إلى إنتاج المستقبل، إما سلبًا أو إيجابًا.

- المسجد في البيئات الدينية يلعب دورًا كبيرًا في تشكّل الوعي، بما يطرحه من قضايا، وما يصنعه من مشاعر تلامس وعي الإنسان، خاصة في مرحلة التشكّل الأولى، فإن كان ما يطرحه هو وعي إنساني انعكس ذلك على المخرجات البشرية والعكس.

- المدرسة لها دور رئيسي في عملية التنشئة، سواء بمنهجها المسطور أو بالمنهج الخفي، وهو ما يحمله المدرس الذي يقدِّم المادة، والمجتمعات التي تعتني فقط بالمنهج المسطور، وتتساهل في المنهج

الخفي، المتضمن -كما أشرنا- ما يؤمن به المدرس، وما يحمله من تصورات لا تتوافق مع المكتوب، فيفضل نقل قناعاته على نقل المكتوب.

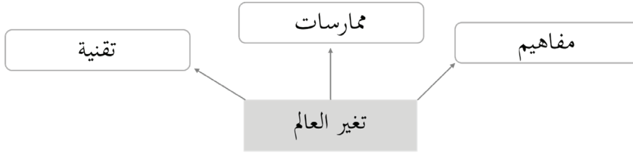
- الفضاء العام مثل: الإعلام والأصدقاء، وما يدور في المجتمع من قضايا لتغذي جانب الخير أو الجانب النقيض.
- أخيرًا يأتي الخارج كمتدخل في كل المجتمعات، ليوجه حركة الحياة بما يناسب مصالحه مستفيدًا من اختلالات المجتمع.

والتحول الاجتماعي مرهون بضبط هذه المدخلات داخل إطار المفاهيم أو المناظير الثمانية.

تغيّرات كبرى لم يتم استيعابها

لماذا لم ندخل العصر بعد؟

تغيّرات كبرى لم يتم استيعابها بعد!



تغيرات يجب أن تدخل في حسابنا

إن رؤية العالم المعاصر، وفهمه، ليست مسألة يسيرة؛ لأنها تعني الاطلاع على التحولات الكونية في الشرق والغرب، فهي التي أنتجت الواقع المعاصر المركّب، الذي حكم، ولا يزال يحكم فضاءنا سواء أحببنا، أو كرهنا، ومن هنا تتولد حاجة ماسة لفهم تحولات العصر الكبرى، وهو أمر يستدعي معرفة أمور عدة؛ مثل: معرفة مسار الفلسفة الغربية، وروح الديانات العامة والشرقية، كما لا تستغني عن فهم الجيوبوليتيك، والاقتصاد العالمي، ومعرفة تاريخ التطورات الاجتماعية الكونية، فنحن محاصرون بكل تلك التطورات التي شكّلت، وما زالت تعيد تشكيل العالم، والإبحار في هذا العالم يحتاج من القادة الإلمام الواسع بجوانب مركبة من المعرفة، وليس هنا مجال لبسط كل ذلك، ولكن سلسلة إعداد قادة النهضة أحد سُبل الإلمام بما يضر الجهل به من المعرفة، فيمكن أن تكون المدخل الأول لتلك المقاربات الأشمل.

تطور المفاهيم:

المفاهيم مجردات عقلية لا توجد بذاتها في الخارج، ولكن توجد حالات منفرد (مصاديق) تندرج تحتها، فمفهوم الإنسان مثلا، يندرج تحته كلٌّ من محمد وعائشة وأحمد وعلي وسعاد، ولكن لا يمكن أن نلمس بأيدينا المفهوم ذاته، فهو مجرد عقلي، وهذا ينطبق على الحرية أو الصدق أو غيرها من المفاهيم، فكل ما يوجد في الخارج هو آحاد تمثل المفهوم، وليس ذاته، وموضوعنا هنا رحلة المفاهيم عبر الزمن وتطورها، وحركتها عبر الزمن، واكتسابها معاني جديدة، وانتقال دلالاتها، فسنجد مثلًا أنَّ كتب التفسير تتحدث عن معنى مفهوم، مثل مفهوم الكرامة الإنسانية في {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ} [الإسراء: 70]، فكما يشرح الطبري ''كرّمنا تضعيف كرم؛ أي جعلنا له مكرمًا أي شرفًا وفضلًا... وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة... وحكى الطبري عن جماعة أن التفضيل هو أن يأكل بيده وسائر الحيوان بالفم''، هكذا كان الفهم لمعنى مفهوم الكرامة الإنسانية في القرن الثالث الهجري / العاشر الميلادي، وأيضاً في الغرب ظهرت مقالات تحت عنوان ''مقالات في الكرامة الإنسانية'' للكاتب Giovanni Pico della Mirandola، ثم مع الفيلسوف الألماني كانت قد تمت ترجمة الكلمة الألمانية ''Würde'' إلى الكلمة الإنجليزية ''dignity''، والتي تعني ''كرامة''، ولكن ما قصد بها في تلك الحقبة كان ''استحقاق'' (worth)، ثم حلت كلمة ''value'' أي ''قيمة'' مكانها فبقي معناها سلبيًّا حتى بداية القرن العشرين؛ أي كانت تعني امتيازًا طبقيًّا للنبلاء ورجال الكنيسة،

ومع الدستور المكسيكي في 1917 ظهر المصطلح ليعني استحقاق الإنسان لكونه إنسانًا، ومن ثم في 1948 ظهر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، واندمج بمسار فلسفي كامل ليعني الحقوق الإنسانية، التي يجب أن يحظى بها البشر جميعًا بشكل متساوٍ، وبدون تمييز، مثل: حق الحرية، والأمان الشخصي، حظر الرق بكل أشكاله، منع التعذيب، منع الحجز تعسفيًّا، حق المحاكمة العادلة، حق العمل، حق التنقل، الخصوصية الفردية، حق اللجوء، حق التملّك، حق الحرية الفكرية، حق المشاركة في الشأن العام، حق الضمان الاجتماعي... إلخ. فما كان مفهومًا سطحيًّا في قرن ما، أصبح مفهومًا ذا دلالات واسعة، ومستلزمات عميقة وخطيرة في هذا العصر، وهكذا مفاهيم مثل: الحرية التي كانت تعني يومًا حالة عكس الرق، أو انعتاقا من القيد أو السجن، أصبحت تعني اليوم معنى عميقًا يغوص في نضالات الإنسان المادية، والفكرية، والقانونية، وما كان مهمًا من المفاهيم كمفهوم العلم تطور حتى أصبح هو الفارق الحاسم في الحروب، وفي الاقتصاد، ففي حين كانت الحروب الماضية تخاض بالعدد، والشجاعة، تحوَّل العالم إلى الكم النوعي على حساب العدد المجرد، وحلت التقنية مكان الشجاعة، وأصبح بإمكان أمم صغيرة أن تتغلب على أمم كبيرة.

تحول المفاهيم إلى ممارسات مقننة:

لم يعد سباق العالم في معرفة القيم، فالكل بات يعرفها، ولكن أصبح الفارق بين أمة وأخرى هو تطور القيم إلى مرحلة التطبيق، والالتزام بها،

وتحقيق ذلك، يتتطلب القيام بعملية متكاملة مكونة من عدة خطوات، ومراحل؛ ففي الخطوة الأولى لا بد أن تعبر القيم من حالتها المجردة في الذهن إلى التحليل المضموني الفلسفي، ومن ثم إلى الشيوع، والتبني كمبدأ، وبعد ذلك لا بد من تحويلها إلى إجراءات دقيقة في الواقع، وبالتالي حمايتها من الاختراق إلى أن تصبح أمرًا تلقائيًّا في المجتمع، هكذا تطورت المجتمعات من المقولات النظرية للقيم إلى تحولات عميقة، جعلت كلًّا من القيم الكبرى سلوكيات ظاهرة في الحياة، تعمل لصالح المجتمع، فقيم مثل: الإبداع، والإتقان، والمثابرة، والجودة، والنظام، واحترام الوقت، والعمل في فريق... ، أصبحت علامات مميزة لشعوب بعينها، فالتنافس اليوم في تطبيق القيم وليس في تعدادها.

التقنية:

البايوتكنولوجي، والطيران، والاتصالات، والمواصلات، والتصوير، والأسلحة الذكية، والحروب الإلكترونية... عالم لا حدود له، يتسع في كل الاتجاهات، ولا يتوقف عن التمدد، العلم يقود الإنسان في مسارات مجهولة، ولكنه سباق يجعل المتفوق فيه سيدًا والآخرين أتباعًا، فتلك هي أوضاع العالم نتيجة العلم وما يقود إليه.

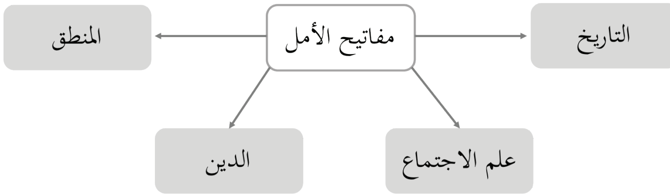
عالم اليوم عالم معقّد، والعبور منه يحتاج إلى الوعي به، وبنظامه، ومجالات اشتغاله، والبراعة في كل ذلك، والعمل في كل هذه المجالات يحتاج إلى دول ومجتمعات حية؛ إذ ليس هناك خلاص فردي أو بأعمال

مرتجلة تقصر المسافات، كما يتوقع البعض، وإنما دول العالم الحي تتنافس في ترتيب أوراقها لتعبر إلى عصر التقنية والمشاركة الفاعلة في المجتمع الدولي.

الشعور بالإمكان ومفاتيح الأمل

الأمل العلمي ما هو؟

الشعور بالإمكان



مفاتيح الأمل وهدم جدار اليأس

يستشعر الشباب في كل مكان حالة اليأس من إمكانية حدوث التغيير إلى الأحسن، خاصة وهم يرون ضخامة المهمة الملقاة على عاتقهم، فكيف يمكن التقدم في مثل هذه الظروف المعقدة؟ هنا نحتاج إلى أن نعالج الأمر من أربع زوايا تُعِينُنا على فهم أن اليأس إنما هو سجن معنوي، وعقلي كبير للشعوب والمجتمعات، وحتى نتمكن من تحرير عقول، وقلوب مجتمعاتنا من هذا السجن الكبير، فلا بد من هدم جدرانه الأربعة التي تطبق علينا، وسنستخدم لذلك أربعة معاول.

الأول: هو علم الاجتماع

ويعطينا هذا العلم درسًا عظيمًا، قد مرت به كل المجتمعات البشرية

عبر تاريخها، ويكمن هذا الدرس في درجة غربة الأفكار التي لا تبلغها معارف العصر في حينها، فكل فكرة جديدة كانت، وما زالت (على الأقل في مجتمعاتنا)، تتلقى بالاستهجان، خذ مثلًا فكرة الطيران، التي سُجن من أجلها عباس بن فرناس كما تحكي الرواية التاريخية، وكم درجة الغباء لو أنكرها إنسان اليوم، فالناس ينكرون الأشياء بفعل معارف الزمان، وليس بحكم ممكنات الإنسان، وهذا مطرد في حركة الأمم، فما يبدو مستحيلًا ومحرمًا في فهم لحظة ما، يصبح هو عين الممكن ومن المتطلبات الأساسية للحياة في فهم لحظة أخرى.

الثاني: علم التاريخ

دراسة التجارب التاريخية تعيننا على فهم تلك الظاهرة التي سنطلق عليها ''قانون المعطيات الصفرية''، وهي ظاهرة تقول: إن أوضاع مجتمعات ما قبل التحوُّل لم تكن تشي بالنتائج التي تحققت فيها، وحتى نفهم هذا القانون أو هذه الظاهرة سنختار نموذجين نبيِّن بهما المراد.

التجربة النبوية والمعطيات الصفرية

لقد تنزَّل الوحي على الرسول - صلى الله عليه وسلم - في غار حراء بمهمة كبرى {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، ولكن عملية إيصال الرسالة للعالمين ونجاحها، كانت بلا شك تواجه عدم توفر البيئة المساعدة لذلك من جهة، سواء على المستوى ''الداخلي'' أو ''الإقليمي'' أو ''الدولي''، ومن جهة أخرى عدم

توفر الموارد اللازمة (الضخمة) كالموارد البشرية والمالية ووسائل التنقل والاتصال. فعلى الحدود البعيدة إمبرطوريتان كبيرتان: الفرس والروم، ودول حدودية: الغساسنة والمناذرة، وحول مكة قبائل متحاربة، لا تعرف السلم، ولا النظام، وفي قلب مكة توجد بيئة معقدة، فيها نخبة تخاف على مصالحها، ومجتمع متمسكك بعقائده، وتصوراته، والمتاح من البشر في مكة محدود العدد، وقليل الموارد، فبناءً على تلك المعطيات كانت المؤشرات تلوح باستحالة القيام بالمهمة، وإنجاحها، ولكن مع كل تلك العوامل العائقة لم تمضِ عقود قليلة إلا وكانت الدعوة قد وصلت مشارق الأرض ومغاربها، ولكن لقائل أن يقول: هذه خاتمة الرسالات، ونصر الله مضمون،. فكيف نقيس عليها؟ لذلك نحتاج إلى نموذج بشري تمامًا، فماذا لو أخذنا الزعيم الصيني "ماوتسي تونج" والتجربة الصينية الحديثة مثالًا لذلك؟

التجربة الصينية والمعطيات الصفرية

في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، كانت الصين تشهد انحطاطًا عظيمًا، ومشاكل جمة، فالبلاد خاضعة لهيمنة بريطانيا وأيرلندا وإيطاليا، فيما سُمِّي بالمعاهدات غير المتكافئة، وبريطانيا شنت على الصين حرب الأفيون سنة 1840م، وخلفت 100000 مدمن؛ أي ربع سكان الصين آنذاك، وكانت نسبة نمو السكان تتفوق على إجمالي الناتج القومي، أما نسبة الأمية فكانت 80%، ومعظم السكان هم أهل الأرياف ويعملون بالزراعة، وشباب الريف تعاني نسبة تبلغ 30% منهم من العمى في مرحلة مبكرة من العمر نتيجة الرمد

الحبيبي المنتشر في الريف، وكانت الأوبئة والمجاعات والفيضانات تجتاح الصين بانتظام، واحتلت اليابان الصين 1895م، ثم قامت الحرب بين الشيوعيين والكومنتانغ 1927، ولم تُحسَم إلا عام 1950 لصالح الشيوعيين، هذه هي معطيات الصين حين بدأت، فمَن يصدق أنها اليوم الأمة المرشحة لتكون الأولى في العالم.

الثالث: المنطق

قطار الفرص يسير بين مختلف الأمم، ولكن مَن لم يكن على الرصيف المناسب ومعه تذكرة القطار، لن يستطيع الركوب، فالأمم التي تستعد وتقوم بما يجب عليها تكون جاهزة لركوب أول قطار واصل لتقلع به، أما مَن لا يستعد ففوات القطار، وحسرة البقاء، والناس ترتحل تصحبه طول العمر، ذلك منطق بسيط، فمَن يستعد بالعمل الجاد ففرصته للتقدم تفوق غيره.

الرابع: المبشرات

مثل قوله تعالى: {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: 128]، والكثير من المبشرات في خطاب الوحي والنبوة.

الدين والبشرية

النسق القرآني للتعايش

تذاكر العبور إلى الغد المأمول

لكل رحلة متطلبات أساسية، ومسار النهضة يحتاج إلى مستلزمات مهمة:

- نموذج لنسق الدين كما يعرضه القرآن.
- الدولة في الوعي الإسلامي.
- القيادة مواصفات.
- القيادة معارف.
- الكتلة الحرجة.

التذكرة الأولى (فهم النسق القرآني)

مفهوم النسق:

النسق هو نموذج جامع يرسم ويبسط عملية تكامل المعالجة القرآنية لبناء المجتمع، ويضع المفاهيم في مستويات مختلفة، تسمح برؤية وظيفتها ورؤية الاتساق بينها وكيف يخدم بعضها بعضًا.

فائدة النسق:

- القدرة على رؤية المتفرقات من النصوص في وحدة جامعة وعلاقتها بمجتمعاتنا.

- معرفة آلية تسكين النصوص في الدوائر الكبرى التي تعمل فيها.

- معرفة أوجه الانحراف التي شوّهت صورة الدين.

نموذج النسق:

النموذج هو تبسيط للشرح لتركيب معقد بهدف الفهم والتذكر، وهنا سنستعرض مستويات النسق.

رابعًا: مستوى مفاهيم الحرب
ثالثًا: مستوى مفاهيم وقيم الدعوة والتواصل
ثانيًا: مستوى قيم ومفاهيم التعايش
أولًا: مستوى مفاهيم وقيم الأساس

مستويات النسق

شرح النسق:

البناء الاجتماعي له أربعة مستويات؛ الأول يكمن في مستوى الأسس التصورية لغاياته وقيمه الحاكمة، وتصوره عن العالم، وعن الإنسان، وفي المستوى الثاني تتجلى قيم المجتمع الحاكمة لمستوى العيش المشترك مع بني الإنسان، والمتسقة مع تصوراته الحاكمة في التأسيس، وله في المستوى الثالث قيمه التي تحكم مساحة التواصل والحوار بين أفراده، كما يعترف باحتمالية الاشتباك العسكري، فيرسم حدوده، ولكنه في كل نقلة يراعي قيم الأساس وينضبط بها.

أولًا: مستوى مفاهيم وقيم الأساس

هذا المستوى يشرح النظرة إلى الوجود، ووظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم، ووظيفة الكتاب، ونطاق الخير، وطبيعة الإنسان، ومراد الله منه، وحرية الاختيار وعواقبه الأخروية، والمسؤولية، وهذا المستوى حاكم على بقية المستويات، وتقاس سلامتها بالاتساق معه ولنرصد تلك المقررات الكبرى:

النظرة إلى الوجود: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ" (الكون له خالق يعتني به بموجب الرحمة).

وظيفة الرسول: "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" (وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم المركزية بسط الرحمة).

نطاق الرحمة الإلهية والرسالية: "رب العالمين" تشمل كل مخلوق، "رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ" تشمل كل مخلوق.

وظيفة الكتاب: "لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ" كل الناس.

طبيعة الإنسان: قابلية التعلم "وَعَلَّمَ آدَمَ"، قابلية الطغيان "إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى"، طبيعة الشح "وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ"، طبيعة الاختلاف "وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"، العلاقة بالإيمان "وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ".

مهمة الإنسان: استنكر الملائكة أمران "قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ"، فعلمنا أن مهمة الإنسان وقف الفساد ووقف سفك الدماء، "وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا"؛ أي خلقكم لعمارتها.

مسؤولية الإنسان: الإنسان مخيَّر ومسؤول: "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ" "أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ" "وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا".

ثانيًا: مستوى مفاهيم وقيم العيش المشترك

فبحسب المستوى الأساسي، الناس مختلفون، وأغلبهم لن يكونوا مؤمنين، ومطلوب وقف الفساد، ووقف سفك الدماء، فما قواعد العيش بين البشر رغم الاختلاف؟ وضمان وقف الفساد وسفك الدماء، هنا تظهر لنا ثلاث قيم:

1 – ”لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ“، وهذا يعني مجتمعًا يقوم على:

أ– البر: أعلى درجات حسن الخلق.

ب– القسط: منتهى العدل.

2 – وسيضبط ذلك برباط محكم ”يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ“:

ج– الوفاء بالعهود والعقود.

فرعاية العيش المشترك تقتضي محاسن الأخلاق، ونظاما عادلا يساوي بين البشر، والوفاء بالعقود والاتفاقات. ولكن البشر في عيشهم المشترك يتبادلون الحوار في قضايا كبرى، منها الدين والسياسة والاقتصاد، فكيف سيتم تنظيم ذلك بحيث تراعى مفاهيم وقيم الأساس، ويحتفظ المجتمع بالأمن والاستقرار؟ هذا ينقلنا إلى مستوى قيم التواصل والدعوة.

ثالثًا: مستوى مفاهيم وقيم التواصل والدعوة:

ينظم الإسلام الحوار بإزالة العوائق النفسية والسلوكية التي تضر بمفهوم الحوار مثل: مصادرة الحوار بادعاء العلوية على مائدة الحوار، ومثلها ممارسة أدوات القمع للمخالف أو النزوع التسلطي، وأيضاً فكرة مصادرة الاختيار عبر إجبار المخالف بالقبول، أو مصادرة حق الآخر

بدعوى مسؤولية الحفظ من الضلال أو بدعوى الوكالة عن الخلق، وحفظ حق الاختيار، كل ذلك في البداية ثم تأتي أساليب مقاربة الحوار، وتنتهي بنقطة المخارجة من الحوار.

بدايات مهمة:

1 - "وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِيضَلالٍ مُبِينٍ" التساوي في احتمال الخطأ.

2 - قبول الدليل "قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ".

3 - خطأ التسلط "لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ".

4- خطأ الإكراه "وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ".

5 - خطأ ادعاء الحفظ "وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا".

6 - خطأ ادعاء الوكالة "وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ".

7 - بقاء حق الاختيار "فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ".

أساليب مقاربة الحوار:

1 - "ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ".

نقطة المخارجة من الحوار:

1 - "وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ".

2 - "أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ".

إن هدف الحوار الوصول إلى الحقيقة، وإن لم يتم الاتفاق عليها فلك حرية الاختيار، ولكن عند نقطة معينة قد يفلت زمام الأمور في حوارات البشر، وهي نقطة قد يصل الحوار فيها إلى حدود تهديد الأسس والعيش المشترك، فلزم عندها وقف الحوار إلى أن تحين ظروف أفضل، ولكن ماذا عن مَن ظلم وبدأ باستخدام القوة لفرض رأيه؟ هنا ينتقل الموضوع إلى مستوى الحرب والتدافع.

رابعًا: مستوى قيم ومفاهيم الحرب:

الحياة البشرية فيها الظلم، وفيها ظاهرة السلام، وظاهرة الحرب، فكيف يدير النص القرآني هذه الحالة في نسقه للعيش المشترك بين بني البشر؟

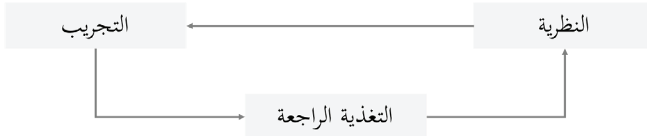
- الحرب ظاهرة مكروهة "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ".
- المجرمون يسعون إلى إشعالها، والله يطفئها "كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ".
- عند وقوع الظلم على فئة لها أن تقاتل "أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ".
- العدوان يرد بمثله "فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ".
- إن عاد المعتدي إلى رشده يستجاب لصوت السلم "وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ".

هكذا نفهم الصورة الكلية، فدائرة الحرب تنتهي بقرار الأطراف العودة لمبدأ التعايش والسلم.

الدولة في العقل المسلم

من النظرية إلى التجريب

الدولة في العقل المسلم



منطق التجربة

العقل المسلم المعاصر، يدور حول فكرة الدولة من قرن أو يزيد، ويرسم لها صورًا في الخيال، صورًا لما ينبغي أن يكون في واقعنا اليوم، باعتباره كان كائنًا جميلًا في الماضي البعيد، وهو في سبيل ذلك لا يبالي بالواقع المسجل في كتب التاريخ، والذي يقول بما لا يقبل الشك إن الدولة المثالية عزيزة المنال، وإن ما تجسد في التاريخ شكل من الأشكال الأولية المحتملة للدولة، وإن الدولة مشروع مستمر من التشكل، وقياس جودتها في قدرتها على تحقيق ضمانات وجودها واستمرارها، وعلى إيجاد الاستقرار وضمان التنمية التي تساهم في رفاه أفرادها.

في البدء يلزم توضيح بعض المصطلحات كما سنستخدمها هنا.

مفهوم الدولة اليوم:

الدولة اليوم: شعب وإقليم وحكومة تمارس سيادتها على الإقليم،

ولها حق التواصل بالعالم بالنيابة عنه، وهي بناء مركب، تتعدد فيه الأجهزة، كالجهاز العسكري لحماية الحدود، والجهاز القضائي لحماية الحقوق، وجهاز مراقبة الجودة لضمان المعايير، ومؤسسة الأسرة، والجهاز التعليمي لضمان التنشئة، والجهاز التشريعي لضبط التشريعات، والجهاز الإعلامي للتواصل والأخبار، والجهاز الرياضي لحماية الأبدان، والجهاز الصحي للوقاية من الأمراض وعلاجها... وتحت كل جهاز تعريفات وتفصيلات.

مفهوم السلطة:

هي الجهة المخولة باستخدام القوة داخل الدولة.

مفهوم الشرعية:

الشرعية: مفهوم سياسي تستمد منه الحكومة الحق في ممارسة السلطة على المحكومين في الكيان السياسي، والشرعية إما أن تكون مستمدة من حيازة القوة كـ "سيطرة الجيش"، أو من الإرث التاريخي "الملكيات"، أو من الاختيار الشعبي "الانتخابات".

مفهوم الدين:

الدين مفهوم كلي لما يُعتَقَد أنه مقدس، ومرتبط بما هو ما ورائي "الإله أو الآلهة أو روح الطبيعة، أو المحرك الأول"، ويتكون في الغالب من نظام رواية كونية تحكي قصة البدء، ومعتقدات، وعبادات وطقوس ومناسبات، ومؤسسة مسيرة للشأن الديني، وتشريعات وأخلاق،

وممارسات للتواصل مع المطلق "خلوات وأذكار وتأملات".

مفهوم الشريعة:

هي الوجه القانوني للدين "المأمورات والمنهيات والمباحات".

تطور مفهوم الدولة تاريخيًّا

الدولة في التاريخ الإسلامي كان يقصد بها الإشارة إلى تغير الحكم من أسرة إلى أسرة، ومن شخص إلى آخر. ولكن لم يتبلور نظريًّا أكثر من ذلك، فالدولة حالة يجد الإنسان نفسه فيها، ويرى تجلياتها، وتحويلها إلى موضوع للدراسة لا يخطر في بال أغلب مَن يعيشون كجزء من الظاهرة، لقد برزت تسميات كثيرة في العصور الوسطى، وما قبلها كالإمبراطوريات، والممالك، والإمارات، والسلطنات، ومن هنا فالتنظير لها بشكله المعاصر متأخر، فماكس فيبر يعرّف الدولة بأنها: "منظمة سياسية إلزامية مع حكومة مركزية تحافظ على الاستخدام الشرعي للقوة في إطار معين من الأرض"، فيما عرّفها منوتيفيديو (Montevideo) في سنة 1933 على أنها "مساحة من الأرض تمتلك سكانًا دائمين، وأقليم محدودة وحكومة قادرة على المحافظة، والسيطرة الفعالة على أراضيها، وإجراء العلاقات الدولية مع الدول الأخرى".

وتأخذ الدولة كمفهوم أدوارًا عدة، فهي تتجلى كمفهوم سياسي،

وبه تصبح لبنة في بناء النظام الدولي، وكمفهوم اجتماعي كظاهرة تصحب الاجتماع البشري، وأيضاً كمفهوم قانوني في أي علاقات ذات طابع إلزامي، وكذلك كمفهوم فلسفي باعتبار أن بداياتها غير معلومة، وقابلة لتصورات مختلفة.

والدول قابلة للنشوء وقابلة للزوال، فعبر التاريخ ظهرت دول جديدة، واختفت دول، فالحروب، ومقاومة الاستعمار أدت إلى نشوء كيانات سياسية، جديدة واختفاء أخرى، وذلك وضع ما زال قائمًا حتى اليوم.

ورغم أن الاعتراف الدولي ليس ركنًا من أركان قيام الدول، فإنه شرط قدرتها على التعامل مع العالم الخارجي. والاعتراف نوعان؛ اعتراف بالدولة، وهذا يحدث مرة واحدة منذ نشأتها، واعتراف بالحكومة وهذا خاضع لعلاقتها بالمحيط الخارجي، فقد تكون الدولة معترفًا بها، ولكن حكومتها لا يتم الاعتراف بها.

وأما مفهوم السيادة فيعني الحق على الحكم الذاتي واتخاذ القرارت، فالقانون يعطي السيادة لجهة ما في المجتمع؛ أي يعطيها حق التصرف، وقد يكون مصدرها الانتخاب الشعبي، ومنه تستمتد قوتها في التصرف، ولكن تبقى الجهة التي لها السيادة الفعلية التي يخضع لها المواطنون، والسلطة الروحية يمكن أن تكون مثالًا على ذلك. قانونيًّا تعتبر السيادة مطلقة، ولكن عمليًّا هي نسبية، فالدول ليست متساوية في القوة، وبالتالي فقراراتها لا تتم إلا في توازن مع قوتها بالنسبة للآخرين.

وهنالك عدد من النظريات حول نشأة الدولة وبداياتها، فهنالك

نظرية النشأة المقدسة "الحق الإلهي"، وهذه كانت دعوى الملكيات القديمة، فكانوا يدعون أنَّ الإله هو الذي اختار الملك، ومشروعيته تمت بناء على ذلك الاختيار، بل وفي أحيان ادعوا، واعتبروا أنه تجلي الإله في الأرض، وهناك أيضاً النظرية التي ترى أن نشأة الدولة بنت ظاهرة تفاوت القوة بين البشر، وهكذا أصبح هناك سيد ومسود، وبينما ترى نظرية أخرى أنه تطور طبيعي من الأسرة للقبيلة، وأبعاد رابطة الدم والدين، وتنامي الوعي السياسي، هناك النظرية التي تقول إن نشأة الدولة تمت من خلال تعاقد اجتماعي كما وضحه توماس هوبز في كتابه "الليفنثان"، ويصف فيه المجتمع البشري في وضعه الطبيعي أو الفطري بأنه كان متوحشًا، ومن هنا تخلى للملك عن كل حقوقه مقابل أن يحفظ الأمن، بينما يرى جون لوك أن الإنسان كان خيرًا، ولكن تنظيم الحياة احتاج لتعاقد مشروط مع الحاكم، وأما جان جاك روسو فهو يرى أن المجتمع الفطري كان في غاية المثالية، ولكن لتنظيم الحياة بين الكثرة من الناس تنازل الفرد أولًا للمجموع (الإرادة العامة[1])، وليس للمجموع التخلي عن الإرادة العامة، والحكومة خادمة لهذه الإرادة العامة، أما حق التشريع فهو حق للسلطة التشريعية الممثلة للإرادة العامة، وليس للسلطة التنفيذية.

1) يقول جون جاك روسو في كتابه "الاقتصاد السياسي": إن المجتمع (المجتمع السياسي) يتمتع بشخصية معنوية لها إرادة، سماها بـ "الإرادة العامة"، والتي تتكون من إرادة الشعب ككل؛ أي من مجموع الأفراد في ذلك المجتمع وعلاقتهم بالسلطة، وأيضاً علاقتهم بالبعض. ويعتبر روسو هذه الإرادة المصدر في التشريع لمصلحة الجميع، وليس للمصلحة الشخصية في المجتمع، ولذلك يكون حكمها عادلًا.

الدولة والإسلام:

تأخذ قضية السلطة وعلاقتها بالدين والشريعة حيّزًا ضخمًا من الحوارات الإسلامية الإسلامية، ونحن هنا لسنا بصدد حسم هذا النزاع، ولكن يحتاج الشباب لفهم عمق هذا الحوار، وطبيعة الأشكال المطروحة أمامهم، وسوف أحاول أن أطرح القضايا التي تعين على التفكير في هذا الموضوع من زوايا مختلفة، وتشرح لماذا الموضوع صعب الحسم، ويبقى شائكًا، وأن بقاءه معلقًا مضر بحاضر الأمة ومستقبلها.

الإشكاليات النظرية والإشكاليات العملية:

تكمن الإشكاليات النظرية في طبيعة النصوص الواردة في موضوع الحكم من حيث أصله، ومن حيث تفصلاته، والإشكاليات العملية من حيث المسار التاريخي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وشواهد الواقع من حيث تبلور تصور محدد للدولة من عدمه.

والإشكاليات النظرية تكمن أيضًا في أن نصوص القرآن لا تنص صراحة على موضوع الحكم، ولا تنزله منزلة مثل بقية الفرائض، وكذلك نصوص بيعات الرسول صلى الله عليه وسلم في المدونات الأثرية، وأما قائمة النصوص التي يستشهد بها تدور بمعنى القضاء لا بمعنى الحكم والدولة، ولكن مع ذلك يبقى الحوار جاريًا حول التأسيس القرآني لأهمية الحكم بمعناه السياسي لا القضائي.

وهناك أيضاً الإشكاليات العملية التاريخية، والتي تدور حول قضية جوهرية يمكن طرحها من خلال هذا التساؤل الرئيسي: هل ممارسة

الرسول صلى الله عليه وسلم للسياسة - كما لا يخفى على متتبع السيرة - كانت جزءًا من ظرف تاريخي، وانتهى بانقضاء ذلك الظرف، أم هي إشارة إلى وجوب قيام الدولة شرعًا وفق ضوابط معينة حددها الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته؟ وفي حال الاستقرار على أن الدولة ضرورة دينية بمعنى أن النص أمر بها، فكم حجم النص المتوفر لتغطية قيم الدولة وبنيتها المركبة وإجراءاتها، وكيفية استجابتها لأوضاع مختلفة من التنوع العرقي والديني، وتباين الأعداد والنسبة بين المسلمين وغيرهم، وكيفية استجابتها لتوقعات مختلفة من العدالة والحرية، تختلف باختلاف العصور وتطور الأزمان.

وهناك الإشكاليات الفقهية، وهي لا تقل عن ذلك أهمية؛ فالفقيه وجد عدة نصوصية كبيرة، نجدها في مدونات الفقه، وتتعلق بالطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة، والبيوع، وغيرها، ولكن النصوص الواردة في حق الدولة يسيرة جدًّا، فالدولة كمفهوم ومؤسسات تكاد تكون غائبة، والشورى غير معرفة الأجهزة والآليات، والعدل غير معرف كمفهوم ولا كآليات، ولا تعيين الحاكم وعزله، ولا الحرية وضماناتها، ولا مفهوم وآليات الرقابة الشعبية، ولا الحالات المختلفة التي يفرضها الواقع على المسلم من قلة أو كثرة، فكل تلك مساحات فراغ عملاقة، وقراءة الرسالة التي نتعلمها من هذا الفراغ تأخذ أشكالًا مختلفة، فالبعض يريد أن يملأ الفراغ باستدعاء الماضي بمسمياته، وأشكال اشتغاله في الدولة التاريخية، والبعض يريد الاستعانة بالعصر ومنجزات الإنسان في ملئه.

أما الإشكاليات الواقعية المعاصرة فهي مربط الفرس في الواقع العملي،

فكل مفاهيم القرون الوسطى والمتعلقة بالظاهرة السياسية، تغيّرت تغيرًا جذريًّا، فالدولة في العصور الوسطى كانت حدودها سائلة، وهي اليوم دول محددة المساحة، النظام الدولي اليومي تؤطره الأمم المتحدة؛ أي أن الدولة اليوم جزء من نسق كوني شامل وليست جزيرة معزولة، وأيضًا اقتصاد العالم أصبح نظامًا واحدًا، ما يصيب جزءًا منه يعم الجميع، كما أن التفاوت المعرفي النوعي أصبح حاسمًا، ولم يعد العدد والكثافة العنصر الحاسم، في الشوارع، وفي المدارس والجامعات، وفي الأسواق، وفي أماكن العمل، وفي وسائل التنقل، لم يعد هناك لون واحد، ولا عرق واحد، ولا شكل واحد، ولا دين واحد، وفكرة الآخر تبدلت تبدلًا جذريًّا، فالحاجة إلى الأمم الأخرى أصبحت أكبر وأعمق، ولذلك فإن الأمن القومي أصبح مسؤولية معقدة، كما لم يسبق في التاريخ، فالتواصل الكوني حطم أسوار العزلة، وأبناؤنا تقوم بتنشئتهم أدوات الإعلام والتواصل الاجتماعي، كما لم يحدث عبر التاريخ، وأيضًا نمو المفاهيم مثل: الحرية والحقوق والوعي بالذات وبالهويات الخاصة أصبح متضخمًا بشكل غير مسبوق، والنماذج الكونية في العدل والحريات والرفاه أصبحت تمثل معايير كونية تتطلع إليها الأمم، والحريات الدينية، وحريات التعبير، وسقوف التطلعات أصبحت غير مسبوقة، وتكلفة شن الحروب أصبحت باهظة على الجميع.

الواقع العملي وإعطاء الأجوبة:

السياسة تعترف بما هو عملي وممكن أكثر مما هو نظري ومطلوب،

فتاريخ المسلمين منذ ألف وأربعمائة سنة قبل بالحكم الاستبدادي باعتباره أمرًا واقعًا وأنه – بحسب الفقه التقليدي – خير من الفتنة، فأُعطي صفة "التغلب"، ولكن ما لم ينتبه إليه الفقيه هو أن الواقع السياسي واقع عملي، ولذلك تركه النص مفتوحًا على التجربة البشرية، وفي النماذج العملية اليوم الكثير من الخبرات المهمة عن مساحة الممكن، وآلية الخروج من الجدل النظري، فهناك التجربة الإيرانية والسودانية، وهناك التجربة الماليزية والتركية، وهناك التجربة الباكستانية، وهي مقاربات كبرى أخذت فرصتها التجريبية في حقل الواقع لا في الخيال والنظر، والواجب اليوم هو الانتقال من الاستنباط الذي يسبح في فضاء الخيال وما ينبغي أن يكون، إلى الواقع الحي بعد أن نزلت النظريات إلى الواقع وتمت تجربتها.

القيادات والتحوّل الإستراتيجي

القيادة

الكتلة الحرجة (لماذا نحتاجها؟)

نحو غدٍ واعدٍ (الغد قادم)

القيادات وفهم العالم

(أ) القيادات

أفكار ومنهج  أفكار ونهج

العبور الصعب

كل مراحل العبور من الصحوة إلى الحضارة خطيرة ومهمة، وهي تحتاج القيادات الواعية بمطالب العصر والعارفة بتحدياته، ولم تعد العقلية الأحادية الثقافية، والمسطحة والمنغلقة على الأيديولوجيا، تصلح لقيادة المرحلة، ولذلك فصناعة القادة من أصعب المهام المطلوبة للمرحلة، وسأعرّف قادة مرحلة اليقظة بشكل مختلف عن التعريف التقليدي للقيادة، فالتعريف التقليدي للقيادة: القدرة على إقناع الأفراد بالهدف وتحفيزهم وتوجيههم إليه باستمرار إلى حين إنجاز المهمة، فهو الوصول إلى النتيجة بتوجيه جهود الآخرين، فالقيادة في مرحلة اليقظة يمكن اختصارها في تصورنا بأنها ''قيادة الذات بتخليصها من مناهج التفكير العقيمة ومن التردد، وتزويدها بإطار فكري قابل للتطور باستمرار مع مهارات قيادة الآخرين اتجاه الهدف''.

هي إذن عملية (تخلية وتحلية)، بالإضافة إلى واجبات القيادة التقليدية، وكل مادة سِلسلة كتب ”قادة النهضة“، وبرنامج ”360 درجة“ على اليوتيوب، مصمم لتحقيق هذا الغرض، فتعديل الإطار الفكري يأتي قبل التزود المهاري، فالقادة أو الذين يمارسون القيادة كُثر في عالمنا العربي والإسلامي، ولكن السؤال في أي اتجاه يسيرون بالأجيال؟ هل باتجاه المستقبل أم باتجاه الماضي؟ وأي عناصر يعدون أهي عناصر اقتحام المستقبل أم عناصر إعادة التجارب الفاشلة والمريرة ذاتها من الماضي؟

إن الأزمة القيادية مركبة اليوم، ففي خضم محاولات التقدم للأمام وربما بنوايا حسنة، يقوم الكثيرون بتغليف الماضي بلغة معاصرة، ليصعد الشباب في تلك الحافلات التي تعيدهم إلى الأفكار ذاتها التي أنتجت الوضعية الحالية، والتي قادت إلى الإشكاليات التي أنتجت أزمات الصحوة، وكأننا لا نتعلم من تجاربنا، فنعيد تجريب المجرب، فاليقظة، إذا أردنا تعريفها باختصار، تعني الاعتبار من تجارب الماضي واختبار مسارات جديدة.

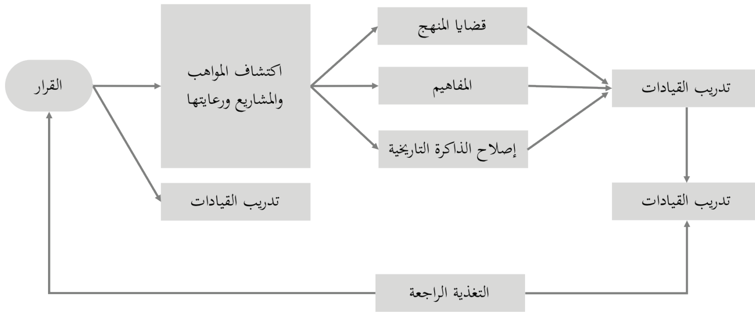
(ب) الكتلة الحرجة

حركة الأمة اليوم تتم في عدد من الاتجاهات، فهناك كتلة كبرى غير معنية سوى بتدبير يومياتها، وهناك كتلة مهتمة بالشأن العام، ولكنها منقسمة على ذاتها، فبعضها يجذب إلى الماضي، راغبين بإحيائه، ظانين

أن فيه النجاة، وبعضهم واقف في المنتصف، لم يحسم أمره، فهو يتأرجح بين التقدم والتأخير، وهناك القلة التي عبرت إلى الانتصار للمستقبل، والكتلة الحرجة من القوى العابرة للمستقبل والضرورية لتحريك المجتمع باتجاه المستقبل أشبه بلعبة شد الحبل، فلكي يتم التغلب على الفريق المنافس، لا بد من زيادة الشد بزيادة عدد القوى التي تقوم بالترجيح، وعلامة الوصول إلى تلك الكتلة هي نقطة انهيار مقاومة الفريق الآخر، واستسلامه للنتيجة، هكذا كان مسار التحولات الكبرى، ونجاحها في الغرب، وفي الشرق.

وبالتالي يمكن تعريف الكتلة الحرجة عندنا في هذا السياق بأنها "أقل كم من البشر النوعيين، الذي يلزم لإحداث التحوّل في الموقف العام في الاتجاه للمستقبل بدل التعلق بالماضي"، ومشروع الكتلة الحرجة هو قلب عملية التجديد، وذلك يعني جهدًا فكريًّا ضخمًا في معالجة قضايا الماضي، وإيجاد البدائل للمستقبل.

(ت) نحو مستقبل جديد



لو قامت مؤسسة؟

إن عملية التحوّل تحتاج إلى عمل مؤسسي، تقودها مؤسسة مركزية يمكن تسميتها بـ ”مؤسسة اليقظة“، تكون مهمتها الرئيسية تنسيق الجهود لهذا المشروع الكبير، مما سيسهّل ويعجّل العملية، ولكن بناء هذه المؤسسة يحتاج إلى العديد من العناصر، كما يبينه الشكل البياني رقم (16)، ووجود هذه المؤسسة في الساحة أيضًا مهم؛ لأن الواقع ليس ساكنًا، وإنما يتحرك، ويتغير باستمرار، فإما أن تكون العملية عشوائية، وغير مخططة يقوم بها التيار العام، أو أن يتم قيادة حركة التغيير، والتحول بشكل منظم ومؤسسي، تكون لها أهداف واضحة من خلال الكتلة الحرجة التي يمكن تنشئتها، وتأسسها كمًّا، ونوعًا،

والمشاريع النوعية كثيرة، وتدريب القيادات يتم، ويمكن توجيهه، والعمل على التحول المنهجي يتم بفعل عوامل متعلقة بالتدافع الفكري في الساحة، والمراجعات المفاهيمية تتم بصورة كثيفة، والعمل الفني والنشر يتم على مستويات عدة، ووجود المؤسسة المركزية قيمة مضافة تختصر الجهود وتمنع التشتت.

أهم ما في كتاب «من الصحوة إلى اليقظة» السابق.

كتاب ”من الصحوة إلى اليقظة“ الأول كان قد تم إخراجه في ظل تصور بالحاجة إلى تحولات كبرى، وفي ضوء تصور لوجود عقبات تحول دون هذا التطور، وأنا اليوم أنظر إلى الخلف لأكثر من عقدين من الزمان، حيث تبدو الصورة أكثر وضوحًا، ولا بأس بأن نستعيد بعض ما جاء في ذلك الكتاب، خاصة مما لم نذكره في صدر هذا الكتاب الجديد، حتى نتحاشى التكرار، وسنذكر بعض ما جاء في المقدمة وفي كل مشهد آثرناه في ذلك الكتاب:

تمهيد:

سياق حركة النهضة:

- الهجرة باعتبارها تأسيس أول مجتمع مسلم 622م.
- الحملات الصليبية 1096م.
- إعلان سقوط الخلافة العثمانية 1924م.

– محطة الهجرة تركت في الضمير المؤمن شعورًا بالكيان السياسي، وبقيت معيارًا مرجعيًّا تقيس عليه الأمة أوضاعها السياسية.

– الحملات الصليبية كانت إعلان هشاشة العالم الإسلامي، وشعور العالم الخارجي بهذا الضعف، وبدء عمليات التكالب المستمر على المنطقة، والذي آخره ظهور القوة التركية على المسرح الدولي.

– انهيار الدولة العثمانية: كان إعلان نهاية رجل أوروبا المريض، ومشروعية اقتسام ممتلكاته، وهي هنا العالم العربي، وبلوغ ظاهرة الإحباط الإسلامي مداها بصدى هذا الزلزال، ولكن طلائع هذا الزلزال جاءت مع حملة نابليون بونبارت 1798م على مصر، وكانت لها آثارها العميقة في الوجدان المسلم، وقد بيّن الجبرتي في كتابه (تاريخ الجبرتي عجائب الآثار) أوضاع مصر حينها، والتي عكست أحوال العالم العربي من حيث الضعف، وسيادة الخرافة، والعجز عن المدافعة.

عناوين التحديات الثلاثة

- انكشف التخلف في العالم الإسلامي بالمقارنة بالأوروبيين.
- بروز قوة الغرب عبر ظاهرة الاستعمار.
- تمزيق العالم الإسلامي وتوزيعه على المنتصرين يومها.

هذه التحديات أصبحت عنواناً لكل التحركات التي أرادت مواجهة حالة الضعف والخروج من المأزق التاريخي. وبالتالي تماثلت عناوين ردة الفعل بين جميع الفرقاء، وهي التحرير والوحدة والنهضة.

مواجهة جذور التخلّف تعني الحاجة إلى العلم، والعلم في القرآن علمان:

- علم في الكتاب.
- علم أشار إليه الكتاب.

فالمسلم مطالب بالعلم عمومًا، وهو اليوم مطالب بالتفوق في مجال الأخلاق، ومجال العلوم المادية على قدم سواء.

ومشروع النهضة يحتاج إلى قيادات:

- والقيادة: رؤية + التزام + مهارات قيادية.
- ومن أهم احتياجات القيادة: الإيمان بالفكرة + التطوير المستمر.

ونهضات الأمم تمر بأربع مراحل: صحوة + يقظة + نهضة + حضارة.

المشهد الأول:

العلم قبل القول والعمل

مشروع النهضة يحتاج إلى علم بالواقع مكين، ورفع الواقع المراد تغييره، ورفع الواقع يحتاج إلى كتلة حرجة من القيادات الحية التي تحمل علمًا مكافئًا لاحتياجات الواقع، والقادة بحاجة إلى:

- صورة منظمة للإسلام.
- تصور عن خبرات النهوض في أمم الأرض.
- معرفة مراحل المشروع.

- معرفة أهداف كل مرحلة.
- معرفة بالوسائل المختلفة للتغيير وشروطها وجدواها وعيوبها.
- معرفة الواقع وقضاياه.
- الاعتبار وأخذ الدروس من التجارب.

المشهد الثاني:

البواعث الكبرى والدوافع

- معرفة قيمة المشروع الإنساني الإسلامي (الإسلام مشروع رحمة للعالمين).
- ما يستشعره الإنسان من إباء لظاهرة التخلف والاستعمار والفرقة.

المشهد الثالث:

التخلّف بحسب نموذج مالك بن نبي

يقسم مالك بن نبي الفضاء التصوري إلى ثلاثة عوالم:

- عالم أفكار.
- عالم علاقات.

- عالم أشياء.

وسر التخلّف يكمن في عالم الأفكار، ومنه يبدأ عالم الإصلاح.

عالم أفكارنا المعاصر

- لا يميّز بين المبادئ، وهي كليات حاكمة، والوسائل وهي اجتهادات متغيرة.
- يجعل التربية شيئًا مفصولًا عن العمل والواقع، بينما تربية الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه كانت ذات الواقع، وفي مواجهة مصاعبه.
- تفكير نمطي لا يسعى إلى التطور والمعرفة.
- يحتفي بالقديم لأنه قديم.
- يكرر المسارات ذاتها دون تجديد.
- يخاف من الجديد.
- لا يميّز بين ما هو بحاجة إلى التنافس، وبين ما هو بحاجة إلى التعاون.
- يعتمد الكلام العاطفي بدل الدليل والبرهان.
- يهتم بمَن قال وليس بما قال.
- لا يُحسن الإنصات للأفكار.

المشهد الرابع:

التاريخ

- أهمية دراسة التاريخ، فالتجارب التاريخية المتنوعة هي معين لا ينضب من الخبرات الحية.
- أهمية إعادة دراسة التاريخ الكبير الذي يعتبر تاريخ الانتصارات والإنجازات.
- أهمية إعادة دراسة التاريخ الصغير الذي يعتبر تاريخ الانكسارات والقصور.
- أهمية إعادة دراسة مسار التاريخ البشري الذي يسير في عمومه في خط صاعد، ولكن يمر بدورات انحدار على خط الصعود ذاته.

المشهد الخامس:

- تقسيم الملفات: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية والصناعية إلى ملفات تخصصية لإنتاج الخبراء المتخصصين.
- لغة الأرقام: إنتاج واعتماد الإحصائيات والدراسات الميدانية، فمن خلال الأرقام يتم رصد الحاضر، وإجراء التدخلات، ورصد النتائج، ثم معاودة التدخل بعد التعديل والتطوير.

الخاتمة

أخيرًا هذا الكتاب على صغره هو مفتاح فهم مسار مقترح لتيار بدأ يشق طريقه، مساهمًا في تيار النهضة العام، وهو يبنى على فكرة أهمية التحوّل الفكري كشرط للعبور، ويسائل أمهات الأفكار الكبرى، ويتوقع تغيرًا عميقًا مقبلًا في مناهج الفكر والمفاهيم، وكل تحريك في المياه الراكدة هو جزء من التغيير المطلوب، فلا تستهن أيها القارئ بنفسك وموقعك، ففيك انطوى العالم الأكبر، شرط أن تتغير.



الدكتور جاسم سلطان

مفكر قطري من مواليد 1953 كاتب ومحاضر في أفكار النهضة وإعداد القادة التي تهتم بإعادة ترتيب العقل وفهم الواقع، واتخاذ القرارات.
يعمل مستشاراً إستراتيجياً لعدد من المؤسسات، وله قائمة من المؤلفات المنشورة والتي تعكس إسهامه الفكري.

كتب الدكتور جاسم سلطان



www.jassimsultan.com